

عبدالله ناصر

هذه ليست
رصاصية

رواية



عبدالله ناصر

هذه ليست رصاصة

رواية





الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥
عبدالله ناصر © ٢٠٢٥
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذه ليست رصاصية: رواية / عبدالله ناصر - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٩٦٠٣٥٥١

١- القصص العربية.

أ- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٥ / ٢٠٢٥

تصميم الغلاف: إيمان النويصر

المحتويات

وجه صغير عند النافذة

١

٢

٣

١/١/١٤٠٧ هـ

١

٢

٣

٤

الحادثة تقريباً

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

وجهه على بقعة الدم

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

٨

٩

١٠

الناجي

١

٢

٣

تهريب الأب

١

٢

٣

٤

٥

إلى
فهد الفهد.

"نحن محاطون بالستائر"

- رينيه ماغريت

وجه صغير عند النافذة

كانت لأبي ثلاثة مسدسات، وبنندقية صيد، وترخيص قديم لحمل السلاح.

أما المسدسات ففي الرف العلوي للخزانة، إذ طالما أخفى أبي أشياءه الثمينة هناك. لن يفتش الملابس من يبحث عن المسدسات، لكن قد يعثر عليها من لا يبحث عنها، كما حدث ذات يوم حين أرسلني أبي لإحضار سترته الصوفية. وأما البندقية فألى جانب باب المجلس القديم، تستند إلى الجدار مثل البندقية التي رسمها رينيه ماغريت في لوحة "الناجي"، غير أن الأرض تحتها تخلو من بقعة الدم. وأما ترخيص السلاح ففي أحد الأدراج المليئة بالأوراق وأرقام الهواتف والفواتير وبطاقات الأعمال وكل ما لم يتخلص منه أبي مخافة أن يحتاج إليه يوماً ما.

كنت قد شاهدته في صباي ينظف مسدساته الثلاثة بعدما فكَّكها في فناء البيت. وقفتُ على أطراف أصابعي لأنتعلق بإفريز النافذة وأتلصص عليه، ولما انتبه إلى الوجه الصغير الملتصق بالزجاج ابتسم ودعاني إليه. كان قد فرغ من تزييتها وتركيبها وراح يمسح عليها برفق. وقبل أن أتخيل المسدس في يدي قال: "لا تُدخِل سبابتك أبداً في قنطرة الزناد". وعدني أن يعلمني الرماية بالبنندقية عندما يحين الوقت، أما المسدسات فقد كان ذلك درسها الأول والأخير.

يعرف أبي أن السلاح لا يخلو بيدٍ إلا وتنجذب السبابة من تلقاء نفسها إلى الزناد، ويعرف ذلك صانعو الأسلحة حين صمموا قفل الأمان تحسباً لسبابة طائشة، ويعرفه مالكوها فيضع كل منهم سلاحه في جراب يبقيه بعيداً عن عينيه. من يقرأ دليل الأسلحة الإرشادي الصادر عن وزارة الداخلية لاشتراطات الأمان يجد كثيراً من هذه التعليمات: "لا توجه السلاح إلى أي أحد"، "صوبه دوماً إلى الاتجاه الآمن"، "لا تحمل السلاح عند شعورك بالتوتر"، "احفظ السلاح في مكان والذخيرة في مكان آخر". لكن ألهذا صُنعت الأسلحة؟

كنت قد رافقت صديقي في العام الماضي إلى معرض الأسلحة، فرأيت كيف تتسابق أيادي الزوّار الخشنة والناعمة إلى المسدسات التي صُفّت على الطاولات كما تُصَفُّ الهواتف الذكية في المتاجر. لفت نظري أن بعض مسدسات غلوك لا تختلف أسعارها عن أحدث هواتف الآيفون، حتى إن ثمن الرصاص يكاد يعادل ثمن إكسسوارات الهاتف.

في أول شقة استأجرها أبي في حي عبدالله فؤاد بالدمام انطلقت رصاصة من مسدسه إلى جدار الصالة، ثم ارتدَّت فاعتلت بالكاد كتفه لتتغرز في الجدار الخلفي. لم تنم أمي ليلتها من الفزع. حاول أبي طمأننتها فطمس أثر الرصاصة. دفع التلفزيون نحو الجدار فاختم الشق الأول، وعلّق على الجدار الآخر صورته الكبيرة فتواترت الرصاصة برأسه مثل فكرة. لم تنسَ أمي قَطُّ تلك الحادثة المشؤومة حتى بعد انتقالهما إلى مسكن آخر. ظلت حتى اليوم تشكو من طنين في الأذن - وإن قال الطبيب إنها سليمة -

وظل أبي حتى وفاته يصبر على أن المسدس كان بلا ذخيرة حين قام بتنظيفه، وأنه قد فرغ بنفسه حجرة الطلقة من الرصاص.

لم أره يحمل مسدسًا في حياتي غير مرّتين. المرّة الأولى حين سافرنا برًّا إلى بلاد الشام -مصيف العائلة المفضّل- على طريق الشمال الدولي الذي يزيد طوله على ألف وخمسة كيلومتر. توقف إلى جانب الطريق قبل منفذ الحديثة الحدودي بقليل ودفن المسدس هناك، ثم عاد لأخذه في طريق العودة. ما يزال البعض في المدن النائية تحديدًا يسافر بالسلاح مُخبأً تحت المقعد مثل سترة النجاة في الطائرة. يحملونه غالبًا على سبيل الاحتياط، إذ ما عاد أحد يقطع الطريق منذ زمن بعيد.

أما المرّة الثانية فحين عاد أخي الصغير إلى البيت مُحطّم الأنف بعدما ضربه خمسة من فتیان الحبي. أرسلته أمي لشراء الخبز فاستوقفه أحد المراهقين الذين كانوا يتسكعون هناك. ظن أن الولد الصغير لا يستطيع الرد على الشتائم واللكمات. ولما وجد المراهقون صاحبهم يُصرع من ولد يصغرهم تسابقوا إلى ضربه. جُنَّ أبي من الغضب حين رأى وجه أخي الدامي، فخرج بالمسدس بحثًا عنهم. وحين ذاع الخبر في الحبي حمل آباء الفتیان الخمسة أبناءهم على الفور إلى مركز الشرطة. بدا غريبًا للضابط المناوب أن يسلم الجناة أنفسهم، ولعله تمنى في سريره لو أن قضاياها المعلقة تحل هكذا نفسها بنفسها. ولما علم أنهم ما جاؤوا إلا لإيواء أبنائهم عنده ريثما يسكت عن أبي الغضب، قال إنه لا يعمل في ملجأ، بل في الشرطة، ثم إنه لا يستطيع أن يجس الفتیان دونما قضية. حتّ آباءهم على أن يرفعوا هم الدعوى على أبي، فنحن لا نعيش في غابة، بل في دولة، وفي الدولة قانون: "إما أن تقدّموا بلاغًا فنقبض على الأب، وإما أن تقدّم الأب بلاغًا فنقبض على الفتیان، ثم تنظر المحكمة في الشكوى. ما لم يكن هناك بلاغ فلا وجود لقضية! والصلح خير".

راح أعيان البلد يطرقون بابنا كل يوم حتى تراجع أبي بعد وساطة صديقه المقرب سعود ناجي، واقتص لأخي فانتهدت القصة كما بدأت شجارًا بين الأولاد.

يُميّز الابن بنفسه أصدقاء أبيه المقربين. يدرك ذلك بالنظر إليهم أو إلى وجه أبيه، بل ويأنس إليهم كما يأنسون إليه. كلما نظرتُ إلى سعود ناجي فاضت المودة حتى من عينه الزجاجية. كان صغيراً حين خرج مع والده في رحلة صيد، أطلق النار على غزال فاصطاده. ركض إليه فوجده يئن، دنا منه فوثب الغزال ووثبته الأخيرة وخطف عينه. أخبرني بذلك حين كنت في الثامنة من عمري، ثم أسرَّ إليَّ أن عينه الزجاجية تبصر الأشياء عن بُعد مثل الدربيل، حتى إنه يصوّب بها حين يطلق الرصاص ويغمض عينه الأخرى. "ألا تصدقني؟"، أغمض عينه السليمة وراح يصف بالزجاجية مجلس أبي، ويشير بيده إلى الباب والنوافذ والستائر والأنوار، ويقرأ الآية المعلقة على الجدار. ولما سألت أبي بعدها ضحك وقال: "لقد أغمض عينه الزجاجية لا السليمة". لطالما أخذتُ بقصة الغزال، ولا أدري أحدثت حقاً أم أنه كان يرتجل ساعتها، لكن إذا كان لا بد لأحدنا أن يفقد إحدى عينيه فليكن ذلك لأجل غزال حقيقي أو حتى مُتخيّل.

كان سعود ناجي يقص عليّ كثيراً من القصص حين لا يجد أبي في البيت، حتى إنه يخبرني في أغراض القصة: "أتريد أن تسمع قصة صيد، أم فروسية، أم عشق؟"، فأختار الفروسية في كل مرة، لكن قصصه كلها في نهاية المطاف ما كانت إلا عن الصيد. كم أحببته حتى تمنيت لو أن لي مثله عيناً زجاجية.

زارنا يوماً حاملاً صقره على شماله. مسح على صدره برفق - كما كان يمسح أبي على مسدساته - ثم نزع عنه البرقع الأبيض فرأيت أجمل طائر في حياتي. انكشفت عينا الصقر البراقتان وجاب نظره الأفق فخطب جناحيه الرمليين خبطة خفيفة. كان جفناه الشفافان ينغلقان أفقياً مثل الستائر. لقد نشأنا أصلاً على الإعجاب به، إذ كان من أوسمة الطفولة ونياشينها أن يدعوك أحدهم "صقراً". ليس لعينه الحادتين "دربيل"، ولا لجناحيه اللذين تكاد سرعتها تبلغ عند الانقراض ربع سرعة الصوت "ماسورة"، ولا لمخلبه الخلفي المقوّس "زناد"، ولا لمنقاره المعقوف "رصاصة"، ليس لأن الصقر بندقية هوائية طبيعية لا بد من تأمينها بالبرقع "قفل الأمان"، ولكن لنفسه الأبيّة التي لا تقيم على الضيم.

أهدى سعود ناجي بندقية الصيد لأبي. كان سعود صياداً مثل أكاتيون، وكانت البندقية من طراز ديانا. سُميت كذلك تيمناً بإلهة الصيد في الميثولوجيا الرومانية، وقد تسببت في مقتل أكاتيون. بندقية هوائية (سكتون) صُنعت لقتل الطيور الصغيرة كالدخل والقمرى، وطردهم الصحفيين كما يعتقد مارادونا. كان الأرجنتيني قد ضاق بهم ذرعاً حين ظلوا يطاردونه بكاميراتهم أينما ذهب. غضب وصبّ السكتون إلى أربعة صحفيين فأصابهم بجروح سطحية، ثم صاح متوعداً: "إذا ضايقتُموني مرةً أخرى، فسأخرج بالرصاص الحي فتقع مأساة". لا يزن رصاص هذا النوع من البنادق أكثر من نصف غرام، ويباع في علب دائرية من المعدن تشبه علب الصبغ القديم للحذاء.

كنا نخرج بالبندقية إلى المنتزه المهجور فنصيد الحمام المتمدّن الذي يقف على أعمدة الإنارة أكثر من وقوفه على الأشجار. سبقت رحلات الصيد دروس رماية منزلية أهملتها أختي الكبيرة، أما أخي فكان أصغر من أن يحمل بندقية. كان يرافقنا ليجلب الطرائد، إذ كان هو الوحيد الذي يستطيع التسلل إلى المنتزه لاويًا جسده عبر القضبان التي تنحني مثل الأقواس فلا يستطيع عبورها غير طفل أو بهلوان. كنا نصيد من دون أن نغادر السيارة، نفتح النافذة بما يكفي لفوهة البندقية أن تخرج، ونطلق الرصاص على الحمام الغافل فيهبوي إلى الأرض عاجزًا عن خبط أجنحته ولو مرّة أخيرة. لطالما تصورتُ الروح تهوي من الجسد هكذا عندما نموت، وقبل أن ندرك أنها النهاية ترتطم بالأرض.

في أحد الأيام قال أبي: "سنأكل من صيدنا". كانت أول مرّة نرى فيها الحمام على مائدة البيت. بدا لحمه منفراً شديد السواد، ولما رأى أبي أيدينا لا تصل إليه مثل رسل إبراهيم تناول لقمة ثم قال: "إن هذا الحمام لا يؤكل، وما لا يؤكل يجب ألا يُقتل". كانت كلماته وداعًا للسلاح أو تمهيدًا لذلك، إذ سيعلم بعدها بمقتل سعود ناجي خطأً في رحلة صيد فلا يقرب أبي بندقيته سنوات طووالاً. لن يقوى حتى على إعادتها إلى حقيبتها الجلدية، وستبقى حيث تركها آخر مرّة مستندة إلى جدار المجلس مثل بندقية ماغريت. كلما نظر إليها ترخّم على سعود ناجي وسرح بعيداً، وإذا كان الترحم على الموتى يجدد عظامهم - كما تمنى راشد الخلاوي في إحدى قصائده - فلا بد أن عظام سعود ناجي ما كانت تبلى إلا وتتجدد في الحال.

لشدّ ما حزن أبي على رحيله فما عاد يغادر البيت، وإن غادر فسرعان ما يعود. قد يمضي أسبوع لا ينهض فيه من الفراش. لا يأكل ولا يتكلم إلا بمقدار ما يأكل الطيف ويتكلم. عندما خرج وحيداً إلى الصيد ظننا أن حداده الطويل انتهى، حتى وجدنا البندقية في مكانها. صار يذهب إلى البحر بالصنارة، وقد رافقته يوماً فكان أضجر أيامي. لم نتبادل كلمة واحدة طوال ساعات، فهمت أننا يجب أن ننتظر فانتظرنا حتى الغروب، وانتبهت وقتئذ إلى طول البال الذي لا بد أن يتمتع به كل صياد وطريدة. لا بد أن أولى جولات المطاردة تبدأ قبل الخروج إلى الصيد ما إن يفكّر الصياد في القتل وتفكّر الطريدة في النجاة. وإن كنت لا أعتقد أن أبي كان راغباً في الصيد بقدر رغبته في الجلوس إلى البحر، إذ كانت صنارته لا تصطاد الأسماك بل تطعمها. لا أتذكّر أنه عاد يوماً من رحلاته البحرية بسمكة واحدة.

بعد مُضي خمس عشرة سنة تململ أبي أو تململت البندقية فحملها وطاف في فناء البيت. كان قد بلغ وقتئذ من العمر ما يجعل قلقه من الماضي أكبر من قلقه من المستقبل. أشجاه ترجيع الحمام، فشرع يلاحقه بالرصاص فوق سطحنا وسطوح الجيران الذين كانوا يكونون له قليلاً من الخوف -لحادثة المسدس وفتيان الحي ربما- وكثيراً من المودة، فقد كان بيتنا مجلس الحي حيث يتردد الجيران كل يوم تقريباً. الباب مفتوح طوال الوقت ليجلب الضيوف كما كان أسلافنا في الماضي البعيد يوقدون النار لجلبهم. ثمة وليمة كل أسبوع للأقارب، والأصدقاء، والغرباء.

كنت سأخاف لو طرق بابي اليوم أحد الجيران ليخبرني أنه سيطلق النار على سطح بيتي، ويعتذر سلفاً عن أي حماسة تسقط هناك! أتذكر حينها أنني سألت أبي، وقد صرنا صديقين أخيراً، عن ذلك الحظر الجوي الذي أقامه فوق شارعنا. قال -وابتسامة هازئة على شفثيه- إن الحمام يسجع أثناء قيلولته فيستيقظ مكدّر المزاج ويظل كذلك حتى نهاية اليوم. لم يقل بماذا يُذكره شجو الحمام، وهل كان يطلق الرصاص على الحمام أم على الذكرى.

لطالما لف الغموض أبي، فلم أعرف مثلاً حتى المرحلة الثانوية أين كان يعمل. أتذكر حيرتي في المدرسة كلما سألني المُعلّم عن مهنة أبي، إذ كنت أرتجل مهنة جديدة في كل سنة دراسية حتى استقر رأيي على أن يكون محامياً. لا أعلم ماذا كان جواب أختي، أما أخي الصغير فأخبرهم أن أبي يعمل محققاً، وقد راجت تلك الشائعة في الحي وعززها خيال أحدهم حين أضاف إليها جهاز المباحث العامة. حين ذهبنا لسؤال أبي ضحك وقال إنه رجل أعمال لكن لا يمانع أن نختار له وظيفة أخرى!

في الدُّرج المليء بالأوراق وأرقام الهواتف والفواتير وبطاقات الأعمال ما يؤكد كلامه. ثمة دفاتر لشركة مقاولات باسمه، وشركة نقلات أيضاً. وفي الدُّرج ترخيص قديم لحمل البندقية تظهر فيه صورة غير ملونة لأبي بالغترة البيضاء، إذ طالما كان يميل لها أكثر من الحمراء. طرف الغترة الأيمن ينسدل على صدره، أما طرفها الآخر فمطوي فوق كتفه اليسرى. عيناه الودودتان لا تلفتان الانتباه لأن من ينظر إلى الصورة أول مرّة تنصرف عيناه إلى الشارب الكث الذي يخفي شفة أبي العليا، وييدي شبابه المطمئن. كان ذلك الشارب موضحة دارجة حينها، وقد ظل أبي وفيّاً له حتى النهاية. التَّقَطت الصورة في استوديو الربيع بدمشق في أواخر السبعينيات. ظل أبي يحتفظ بالنيجاتيف فيعيد تحميصه بين الحين والحين ليستعمل الصورة في الوثائق الرسمية، حتى راحت الدوائر الحكومية تطالب المراجعين بصور ملونة وحديثة، ثم تولت بنفسها أمر الصور فصارت تلتقطها فورياً من دون مبالاة بامتعاض الناس واستنكارهم لبشاعتها.

يبدو أبي في صورة الترخيص شديد الوقار كما يبدو في الواقع، ولو كنت أعمل في تراخيص الأسلحة

لمنحته الترخيص من دون حاجة إلى التحقق من استيفائه للشروط، فالرجل يبلغ السن القانونية، ولا يشكو في الظاهر من مرض نفسي أو عصابي، وليس في هيئته الرزينة ما يشي بحكم جنائي أو قيود أمنية. تلك هي الشروط الثلاثة اللازمة للحصول على ترخيص لحمل السلاح. ومن سيطلق الرصاص على كل حال لن يكثرث سواء أكان السلاح مرخصاً أم غير مرخص، بل إن اقتناء السلاح في حد ذاته ترخيص شخصي. ثم كيف يميّز العاملون هناك الأمراض النفسية ما لم يتقدم إليهم المرء بتقرير معتمد من الطب النفسي، ولا أظنهم يفعلون ذلك. وإن كنت للأمانة أعتقد أننا جميعاً نشكو من أمراض نفسية بدرجة أو بأخرى. نخفيها أو نتعايش معها، ومن لا يستطيع يُساق إلى المصحة. على أن ذلك الموظف في إدارة التراخيص قد أخطأ كما أنني سأخطئ لو كنت في مكانه، إذ لم يكلف نفسه عناء البحث والتدقيق في سجل أبي الذي كان مستوفياً الشروط باستثناء شرط الحكم الجنائي.

كان أبي قد أطلق في يوم بعيد خمس رصاصات على رجلٍ ما!

وقعت تلك الحادثة أو الجناية، على حدِّ وصف القانون، في زمن بعيد بعيد، حتى إن أجدادي الأربعة كانوا جميعاً وقتذاك فوق الأرض، وتلك هبة لا ينعم بها كل الأحفاد. لن ينعم طفلي بها أبداً. مضت على الحادثة أربعون سنة. لو كان أبي اليوم حياً لعقَّب قائلاً: "يا سرعها على الحبي" أو "يقطعك يا دنيا سريع دورها". لا يتذكَّر المرء حادثة بعيدة إلا ويتوقف برهة للتحديق في ركام الزمن الذي مضى على هوله بلمح البصر.

كان رشيد جدِّي لأبي -سُمِّيتُ باسمه كما سُمِّي هو أيضاً باسم جدّه- يصطاف في ريف دمشق رفقة أصحابه التجار بعد أن باع محصول مزرعته الكبيرة من التمور، يوم كانت مزارع النخل استثماراً آمناً. لم ترافقه جدِّي وضحي التي أعرضت منذ زمن عن الدنيا، وعقدت عزمها على دخول الجنة من باب الريان، وهكذا راحت تصوم يوماً وتُفطر يوماً مثل النبي داود. هل كانت ساعتئذ تصلي الضحي وتسال الله في كل سجدة ألا يأخذ أيّاً من أبنائها قبل أن يأخذها؟ لظالما سمعتها تردد ذلك الدعاء حتى استجاب لها الله. كانت تزور ابنتها الكبرى وقت الحادثة، ولما طُرق باب البيت طرقت عنيماً أيقنت أن مكروهاً وقع. للنوائب برامج تطرق على القلب.

جدِّي الثاني عبدالعزيز على بُعد أربعمئة كيلومتر من الحادثة يغتسل للذهاب مبكراً إلى الجامع الكبير. كان يوم الجمعة، وقد صادف ذلك اليوم العسير أول يوم في تلك السنة الهجرية.

وكنت حينها في الرابعة من عمري. ألعب مع أختي أو نشاجر، وشجار الأطفال لعب ولو انتهى بالبكاء. أما أخي الصغير ففي أحشاء أمي يركل بنفاد صبر ليشاركنا اللعب. أمي في أواخر الشهر التاسع تترقب المخاض، ومع كل انقباضة عابرة تظن الوقت قد حان. كنا قد سافرنا إلى الرياض لنقيم عند جدِّي نورة. ولو لم نذهب إليها لما تأخرت هي عن زيارتنا، إذ ما كانت لتترك ابنتها المريضة على الدوام وحدها.

كان حملُ أمي مخاطرة تدخّل الطب كي لا تتكرر. وضع في قلبها صهماً معدنياً ما إن أنجبت أخي، وظلت مع ذلك مريضة على الدوام. ظنت أمي أننا سنبقى هناك حتى تضع حملها وتستعيد عافيتها، ولو علمت أن إقامتنا ستطول هذه المرّة لما جاءت بملابسنا الصيفية فحسب، إذ كانت ستحزم البيت كله بدلاً من الحقيقتين الكبيرتين. قال والداها بصوت خافت: "لن نخبرها بما حدث"، ثم استدركا في حيرة ويأس: "ولكن ماذا نقول؟".

الأعمال في شركة أبي تسير بانتظام تحت إشراف المحاسب الأمين الذي كان يعمل سكرتيراً في الوقت نفسه، وحارساً ليلياً في المستودع، وحملاً في أوقات الذروة. شاحنات المرسيدس الثاني تشحن البضائع من أرصفة ميناء الملك عبدالعزيز بالدمام وتفرغها في المستودعات كل يوم حتى في العطل الأسبوعية.

كان ذلك النوع الأسطوري من الشاحنات أقرب الصناعات إلى الكمال حتى كادت لا تحتاج إلى قطع الغيار. عُرفت هنا باسم "البوز" بسبب مقدمتها المدببة. ما كانت شبكة الطرق السريعة في المملكة والعالم أجمع تخلو منها طوال أربعين سنة. وما كان على سبيل المبالغة ولا التسويق قول الناس إن تلك الشاحنات يمكن توريثها للأبناء، بل حتى للأحفاد. وقد تفتنت الشركات مبكرًا إلى ذلك الخلل فما عادت تصنع اليوم ما يدوم طويلًا.

وكان أبي الذي لم يظهر في مكتبه يوم الحادثة قد أخذت تبدو عليه علامات الثراء على الطريقة الهندية. خاتم من الذهب في البنصر اليمنى، وساعة رولكس ذهبية في المعصم الأيسر. لم تتجاوز ثروته المليون بعد، وقد زعمت الأسطورة الشعبية أن المرء ما إن يلامس المليون الأول حتى تتكاثر أمواله كالأرانب. على أي لم أعرف أبي ثريًا إلا في الصور والقصص، قصص الآخرين تحديداً، إذ لم يقل قط: "كان عندي". احتفظ بصورة باهتة قديمة يحملني فيها عاليًا، تكاد تلتصق فيها ساعته الذهبية وخاتمه الذهبي وأسناني الصغيرة الضاحكة.

كانت جدتي نورة قد حدثتني يومًا عن أبي، وعن حقبة سوداء مليئة بالمال يدخل بها البيت ويخرج. قالت في حسرة: "كان عليه أن يشتري لكم بيتًا". ولما استجمعت شجاعته ذات يوم ودعت زوج ابنتها لذلك قال في برود: "لماذا؟ ما دمت أستطيع العيش في أي بيت أريد". لم يغلظها جوابه الذي لا يخلو من الغرور - أم تراه كان محض سخرية؟ - بقدر غيظها من مساعدته الأقارب والأصدقاء لبناء بيوتهم. قالت بعد وفاته: "عمر بيوت الناس وترك أولاده بلا بيت"، ثم سرعان ما ترحمت عليه. سألتُ أمي ذات مرة عن تلك الحقبة السوداء فقالت إنها لا تتذكر.

بدا الصباح في يوم الحادثة اعتياديًا، والكوارث أكثر ما تقع في أيام كهذه. تجاوزت الساعة العاشرة والنصف صباحًا ولم يأت أبي حتى الآن إلى المكتب. لو جاء متأخرًا لتواصلت وتيرة اليوم الاعتيادية، وانشغل بالرد على الهاتف أو التوقيع على سندات القبض. لكم أحببت يده التوقيع، ما إن تمسك بالقلم حتى تبتكر من فورها توقيعًا تلو توقيع، فتخط على أي ورقة تعترضها ولو على أطراف الجريدة. من يرى انهماكه سيظن أنه يرسم لا يوقع. بضعة خطوط عمودية وأفقية غير متساوية الطول يتخللها حرفان أو ثلاثة ثم ينتهي التوقيع الجديد كالعادة بنقطتين رأسيين. كانت النقطتان الرأسيان توقيع التوقيع. أما توقيع الرسم الذي ما كان يتغير مثل اسمه فقد كان هاء كبيرة لها شكل الحوت الأزرق، يرتفع بعدها ما يشبه حرف الحاء بخط الرقعة عند النيسم - حيث ينفث الحوت الهواء - تجاوره ثلاثة خطوط مستقيمة تلتقي في نقطة ثم تمتد إلى اليسار في خط أفقي واحد حتى ينتهي بنقطتين رأسيين بدلاً من الذيل.

قلدت ذلك التوقيع مرارًا في مراهقتي حتى أتقنته، إذ كان كثير من الطلبة يجلون محل آبائهم في توقيع التقارير الشهرية المخزية والاستدعاءات المدرسية العاجلة. على أي كنت طالبًا متفوقًا ولم أحتج يومًا إلى

تزوير توقيعه. لكن يد أبي الآن لا تمسك بقلمه الذي كان من الذهب الخالص أيضًا، وإنما تحمل مسدسًا ليس من مسدساته الثلاثة، وتطلق الرصاص على رجل ما. رصاصة، رصاصتان، ثلاث، أربع، خمس رصاصات. أما كانت الرصاصة الأولى كافية؟ لا بد أن دم الرجل سال بغزارة حتى ارتسمت على الأرض بقعة حمراء مثل تلك التي في لوحة "الناجي" لماغريت.

وفي اليوم التالي، عاد جدّي رشيد من بلاد الشام، وسافر جدّي عبدالعزيز من الرياض، والتقيا في الدمام. جدّتي وضحي لا تبرح سجاداتها تُلح على الله أن يعيد إليها ابنها، أما جدّتي نورة فتكابد ما تكابد لتخفي الخبر عن ابنتها. واصلنا اللعب والشجار أنا وأختي ريثما ينضم إلينا أخي، أما أمي فلعلها راحت تعتب على أبي الذي لم يهاتف زوجته الحامل ليطمئن عليها أمس ولا اليوم. أبي في السجن، وذلك الرجل يرقد في أحد المستشفيات بين الحياة والموت.

سمعت بالحادثة أول ما سمعت في التاسعة من عمري يوم كنت أسكن جنة الطفولة وأكل منها رغداً حيث أشاء. ولما كان لكل منا إبليس لا يهدأ باله حتى يخرجنا من الجنة، فقد أسر لي أحد الأولاد بالحادثة.

كنا يومها في القرية ننتزه بمزرعة جدِّي رشيد تحت ظلال النخيل في إحدى العطل الصيفية الطويلة. الفتیان سبقونا إلى شجر اللوز فجردوه من الثمار، وما عاد لنا غير اللعب بالماء وصيد الضفادع الكسولة، أو الذهاب إلى حوش البقر حيث يتكوم الروث والسأم. وفي تلك الأثناء قال الولد الذي يكبرني قليلاً إنه سمع -عَرَضًا- أخاه الأكبر يقول إن أبي قد أطلق النار على أحدهم فأرداه قتيلاً. والتفت نحوي يتساءل عن الحادثة، ولما رأى في وجهي صُفرة الفزع خاف أن أخبر أحداً فاستحلفني أن أحفظ السر.

للصغار كما للكبار أسرارهم الخاصة، وإن كان هذا السر أثقل من أن يحمله صدر طفل، إلا أنني سأحمله سنوات طوياً جاهلاً أنه ليس سرّاً.

كانت الشمس حينذاك توشك على الغروب، وطفولتي كذلك، وبات علينا أن نعود إلى بيت جدِّي الكبير قبل أن ينتشر الجن في الساعة التي تنهانا الأمهات فيها عن اللعب. وكنا -أبناء المدن- نعود إليهن من غير نداء، بالغريزة، خوفاً من قدوم الليل الذي كان ينحبس في المزرعة تحت النخيل حتى يبدو مضاعفاً. وما كان أحد وقتذاك يشير إلى المزرعة بغير النخل: نخل فلان أو آل فلان، لأنه كل ما يزرعون هناك إذا ما استثنينا القليل من اللوز والنبق وبعض الخضراوات.

ظلت مزرعة جدِّي رشيد طوال عقدين تنتج من التمور أجودها، حتى إنها كانت تصدّره إلى أسواق الخليج. تكفّلت في ذلك الزمن الخصب عيون الماء بريّ النخيل قبل أن يجف، ويتعين على الناس حفر آبار ارتوازية. يعلم المزارعون لا الملاك أن النخل شجر عزيز النفس إذا أكرمته أكرمك، وإذا ضننت عليه بالماء ضن عليك بكل شيء. ولما مات جدِّي رشيد تحوّل أبناؤه العشرة إلى ورثة وتخاصموا، وخصام الورثة ألد الخصام، وهكذا ترك النخيل للظمأ ثم للسوس الأحمر ثم لجرافات البلدية التي صرمته خوفاً من أن ينتقل السوس إلى المزارع المجاورة.

تقع المزرعة في قرية صغيرة تُدعى "أبو معن"، وليس يُعرف اليوم أصل الاسم. تعددت الأقاويل. قالوا إن السبب يعود إلى مائها المعين الذي كان يتدفق من عشرات العيون في أرضها الخصبة، وقيل إنها كنية الرجل الذي سُميت به البلدة، فالبلاد تأخذ من أسماء أبنائها كما يأخذون منها أسماءهم، وخالفهم البعض بقولهم إنها نُسبت لفعل الرجل لا لكُنيته، إذ كان يمعن في العطاء والبذل. ولو صح أنها كانت في الزمن القديم محطة للحجاج فصيت الكرم وحسن الضيافة يحيط تاريخياً بالقرية وناسها. على أن ذكرها

لا يأتي إلا لماً في المعاجم وكتب التاريخ، وعندما تُذكر يقال إنها قرية ليست بذات أهمية. تقع أبو معن في الشمال الغربي لمحافظة القطيف، وهي من القرى السنوية النادرة هناك، وقد نزل فيها أبناء البادية، ولم يتجاوز عددهم في زمن الحادثة أكثر من ثلاثمئة نفس.

هناك في تلك القرية، بين مزرعة جدّي رشيد وبيته، أطلق أبي الرصاص، وغار الدم في الطريق الترابي الذي رُدم وعُبد أكثر من مرّة.

لن أسمع بالحادثة مرّة أخرى إلا بعد مرور خمسة أصياف في بيت جدّي عبدالعزيز بالرياض، حين صرت أفضي مكرهاً كل العطل الطويلة هناك. أمي تزور والديها فتتبعها ونترك أبي وحيداً في الدمام. أصبح في الصباح الباكر فأخرج إلى حديقة البيت الصغيرة، حيث غرس جدّي فسائل النخيل وزرعت جدّي الريحان. يحط بين الفينة والفينة عصفور على عذوق النخل ليطلع الرطب قبيل نضوجه. لو كان جدّي مزارعاً لربما سارع إلى تكميم العذوق حتى لا تقربها الطيور، لكنه كان يتباشر لمراها بموسم الحرف كما يتباشر المزارعون بطلوع المرمز (نجم الشعري) الذي تُنضح فيه شدة القيظ الرطب. لطالما استوقف جدّي عبدالعزيز نقر العصافير، وذكره بقصيدة راشد الخلاوي التي يقول فيها إن قبلة محبوبته ألد من الرطب الذي تنقره الطيور. ظل كثير من الناس يعتقدون حتى زمن قريب أن الرطب المنقور أطيب ما يطرحه النخيل.

وكان جدّي يتذوق الشعر كما لو كان رطباً أو قبلة، ويُدوّني من قصائد الخلاوي وابن لعبون وابن سيّبل. يردد مفضلياته الشعرية التي ستظل تؤنسه حتى يمحوها الزهايمر. هناك تحت النخيل -مرّة أخرى- ستذكر الحادثة. سيأتي جدّي على بعض الأبيات لأستوقفه متسائلاً عن معناها، فيقول على نحو مباغت:

- هذا ما فعله أبوك حين أطلق الرصاص.

- وقتل الرجل.

رمقني غاضباً:

- لا، لم يقتله. من أين تأتي بهذا الكلام؟

سأحفظ تلك القصيدة -وقد كنت أحفظ القصائد من أول مرّة- وإن لم ترو قصة أبي.

أضرب على الكايد ليا صرت بحلان

وعند الولي وصل الرشا وانقطاعه

إما تجي بعقود حصن ومرجان

والا فهي لابليس طار بشعاعه

أرددها مراراً كأنها ألح عليها لتخبرني المزيد، لكنها تقول الشيء نفسه في كل مرّة. لقد وجد أبي نفسه في مآزق فاختر أن يضرب على الكايد الذي لم أدرك كنهه وقتها، وإن أدركت بما يشبه اليقين أن المطاف لم

ينته به إلى اللؤلؤ والمرجان.

بعد عودتنا من الرياض، سألت أبي عن معنى تلك الأبيات التي سمعت جدي يرددتها طمعاً بأن يقص عليّ الحادثة، لكنه حدّثني عن مناسبة القصيدة وقصة شاعرها الفارس. حثني أيضاً على حفظ الشعر، ولم أسأله قطُّ عن الحادثة. ليتني فعلت وما ظللت أهجس بها حتى اليوم.

لم أجفل قطُّ من أبي حتى بعد سماعي بالحادثة.

لا شك أنني كنت أهابه، لكن مهابته لم تكن مقصورة على أبنائه فحسب، إذ كانت خارج البيت أكثر منها داخله. وليس ذاك مما يتوهمه الأبناء في آبائهم حتى إذا كبروا تبين لهم خلاف ذلك، ولا بسبب الحادثة، ولا لمنصب نافذ أو ثروة فاحشة، إنما خلِق كذلك.

ما دخل مكاناً إلا وغشيته. حيثما يجلس يكون صدر المجلس. يطوي ساقه اليمنى فلا تتحرك أبداً كأنها من رخام. لا طيات في الثوب أو الشماغ المضمخ بالعود أو الصندل. لم يكن كثير الكلام. قد تُغنيه نظرة أو إيحاء عن الحديث، لكن إذا تحدّث كاد صوته الجمهوري يتجاوز أذني السامع إلى روعه.

كان رجلاً أشم، فارح القامة، إذا ما سار اتسعت خطوته وبات عليّ أن أجاهد للحاق به كما أفعل الآن حين أكتب هذه الفقرة. أكاد أسمع صوت حذائه الأسود يتقدمني. كان ذلك الحذاء البرّاق مزلاج البيت. كم أرسلتنا لتفقده جدّتي وضحي بعدما فقدت بصرها. "هل خرج أبوكم اليوم أم ما يزال هنا؟ اذهبوا فانظروا إلى حذائه". نعود إليها بعد ثوانٍ فنقول إن أبي ليس في البيت. تهز رأسها قائلة: "في أمان الله"، ثم ترسلنا بعد قليل لتفقده من جديد. كانت جدّتي تقلق على أبي إذا خرج، وتقلق إذا لم يخرج. وهكذا حولتنا إلى مراسلين صغار نغطي حركات الحذاء الأسود وسكناته.

كان النظر إلى حذائه في طفولتنا يشعرنا بالأمان. الفردتان مستقيمتان وملتصقتان بجانب المدخل، بينما تتناثر أحذيتنا في الجانب الآخر بعضها فوق بعض. لا نخاف الليل ولا اللصوص ولا حتى ذلك السفاح الذي شاعت أسطوره في الدمام - كانت تلك الأسطورة تتردد كل بضع سنوات فيسارع إلى نفيها مدير الشرطة - أما إذا غادر أبي فما كنا لنطمئن حتى لو قفلنا الباب مرّتين.

كلما خرج إلى الحديقة أو إلى البحر لبثت أرقب عودته. كان يمشي كل مساء ساعة أو ساعتين. يسبح كل يومين أو ثلاثة. يمضي بعيداً في لجّة البحر حتى لا يرى من الساحل. كم تحيّلته يغرق في صباي، لكنه ظل يعود في كل مرّة من قاع البحر.

قلّما كان يأكل، إذ لم يكن يرى على المائدة غير الأسقام. كان يؤمن بالمثل القائل: "إن العافية في أطراف الجوع". يطوي بطنه زاعماً أن جسد الإنسان صُمّم لتحمل الجوع أكثر من قدرته على تحمّل الشبع. "والمرء يا بني يُشبعه الرغيف اليابس كما يُشبعه الخروف السمين". عندما انزلق أبي في غيبوبة تعجب الطبيب من قلبه الشاب. كان قد حافظ على جسده الرياضي على الرغم من تجاوزه الستين. لكن المنية أنشبت أظفارها، وليس لقلب مهمل بلوغ من الشباب أن يدفعها بعيداً. جهاز قياس العلامات الحيوية يصدر صوتاً مشوؤماً. لا أنسى ذلك الصوت أبداً. من يستمع إليه مرّة واحدة سيظل يسمعه طوال حياته. يقيس ذلك الجهاز ساعة المرء بدقة لا مثيل لها.

ولما نفذ الوقت حُمدت يد أبي الموصولة بالمحاليل والأوردة الطيبة. لن تخزها الإبر بعد اليوم ولا القُبلات. ارتحى ظاهر اليد، واستكانت العروق، واثنت الأصابع التي لن يقلّم أظفارها مرّة أخرى. حُفِظت في الثلاجة كما يُحفظ الطعام البائت. دُسّت في الكفن. أُهيل عليها التراب، وأُهيل على التراب الحصى.

أراها مع ذلك. أرى يدَ أبي التي أطلقت الرصاص ماثلة أمامي طوال الوقت. يكسوها اللحم، وتنبت عليها الشعيرات، ويندفع في عروقها الدم. لقد أورثني تلك اليد المبسوطة أبدًا بكامل خطوطها. كنا قد طابقتها ذات مرّة فتماثلت اليدان على نحو يصعب تصديقه. لو كان لبصمتين أن تتطابقا لكانتا بصمتينا.

كان في راحته اليمنى -وما يزال في راحتي- خطان عريضان. الأول يسير أفقيًا فيقطع يدي بالعرض حتى إذا انتهى انحدر منه الخط الثاني مائلًا مثل قوس. عندما تكون اليد في وضع المصافحة يشكّل الخطان ما يشبه رقم ٨، أما إذا ارتفعت اليد فيتحوّل الخطان إلى منقار طائر جارح، فإذا انخفضت قليلًا انقلب المنقار إلى شرع لا يخلو من الشقوق. كانت إحدى العرّافات -أو من يتظاهرن بالعرافة- قد استوقفتها في جبل قاسيون وقرأت كَفّه قائلةً: "إنك ستخوض محنة عظيمة وستنجو". ضحك أبي ونفحها بعض المال. لا أظنه كان يأخذها على محمل الجد، فمن ذا الذي لا يُمتحن في هذه الدنيا. البلاء حتمي أما النجاة فلا.

قال لي ذات مرّة إنه كان يقيس طولي بيده تلك في سنوات الطفولة ما إن أخلد إلى النوم. وكم تساءلت بعدها: هل كانت يده تراقب نمو ذلك الطفل الذي لا يتجاوز طوله حينها بضعة أشبار، أم كانت تستعجله ليكبر؟ تلامسني تلك الكلمات كلما تذكّرتها كأنها يده. قال لي أيضًا: "لن تفهم حتى تكون أبًا".

على أن أكثر صور يده رسوخًا في ذهني حين كانت تحملني طفلًا كلما نمت خارج البيت. أفتح عينيّ فزعًا فتدعوني نظرتة الحانية إلى معاودة النوم. أحسب أن نوم الطفل في الأصل رغبة عارمة في العودة إلى البيت. لعله بذلك يقطع الزيارة العائلية، ويمضي وحيدًا هناك. أحمل طفلي اليوم وأنظر إليه حين يفتح عينيه فزعًا فيعاود النوم في طمأنينة. وبعد عشرين أو ثلاثين سنة، عندما يحمل هو أيضًا طفله النائم، لا بد أن يتذكّر تلك اليد التي كانت تربطه بأبيه مثل جبل سرّي.

لا بد أن أبي لم يشأ أن أعلم بالحادثة في ذلك العمر المبكر. لعله أرجأ ذلك حتى أكبر. يُجِبُّ الكبار لصغارهم بعض الصدمات كما تفعل الحياة. وحينما كبرت راح أبي يباطل ويؤجل الأمر سنة بعد سنة. أم ظن أني صرت أعرف؟ لطالما بالغ الآباء في تقدير ما يعرفه عنهم أبناءهم وما لا يعرفونه أيضًا. أظن أنني لو سألته لما تردد في إخباري بالقصة كاملة، لكنني جُبلت على ألا أسأل، وذلك طبع قاسٍ قضى عليّ أن أصبر طويلًا وأضعف انتباهي حتى أجيب عن الأسئلة التي لا أطرحها. ما ضاق جفن أو زاغ حاجب في مجالس الرجال إلا رفّت عينايا وأذنايا، إذ كان طرف من الحادثة يظهر بين الحين والحين.

أما أمي فما كانت لتخبرني بما حدث قطعًا. أيُّ أم تلك التي تأتي بصغيرها فتجلسه في حجرها، وتمسح على رأسه ثم تقول: "اسمع يا ولدي، لقد أطلق أبوك النار على أحدهم!"

لكن الحادثة نفسها لم تكن سرًّا. صادف أني كنت طفلًا حينها فلم أشهد تلك الوليمة العريضة التي أولمها جدّي لرجال القرية ليلقي على مسامعهم قصيدة يمتدح فيها أبي لإطلاقه الرصاص. ثم صرت غلامًا وليس في أقراني بالطبع من شهد الحادثة لأسأله. مضت عشر سنوات وجاء الزمن بحوادث أخرى فما عاد هناك من يذكرها في المجالس.

تركتُ الحادثة وراء ظهري. نسيتها حتى مات أبي. رحت أفتش عن وصيته في كل مكان فلم أجد غير صكٍّ قديم في الخزانة الرمادية يعود تاريخه إلى زمن الحادثة. قرأته أكثر من مرّة حتى بدا أن صك الحادثة هو الوصية.

مضيت بعدها أستمع إلى شهادات الأحياء، وهسيس الأموات. أرسم الحادثة بالسمع مثلما يفعل الرسام الجنائي. أجمع الأوصاف والتشبيهات حتى صار عندي هذا الرسم للحادثة.

الحادثة تقريباً

لا بد أن الهاتف الأرضي قد أيقظ أبي من الرنة الأولى أو الثانية على أبعد تقدير. قام وقد كانت توقظه أدنى حركة أو صوت. لم يكن ممن يغرق في النوم، إنما يطفو على سطحه أربع ساعات أو خمسًا واضعًا قدمًا على قدم كما يفعل الناس في البلكون أو قبالة الشاطئ. لن تجد في وجهه أو صوته عندما يصحو أثرًا من الرقاد كأن حصته من النوم لا تعدو إغماض العينين. الأرجح أنه كان يزدري النوم كما ازدراه أجدادنا الأوائل. كانوا لا يرون فيه لظروف حياتهم الشاقة غير دليل دامغ على البلادة والخمول. قد تكلف الأجفان الثقيلة أصحابها في ذلك الزمن الخطير إبلهم أو حتى أنفسهم حين تُشن الغارة فجراً. ربما نسي أبي أن يفصل سلك الهاتف - وقد كنا نفضله قبل النوم - إذ كان لليل حرمةً آنذاك. أو لعل أبي تركه موصولاً عن عمد في انتظار هاتف من الرياض يبشره بقدوم مولوده الجديد.

رن الهاتف فامتدت يد أبي تحت اللحاف القطني تتحسس السّاعة السوداء. عمّي زيد (١٧ سنة) الأخ غير الشقيق في الجانب الآخر يحمل السّاعة منذ الأمس. يضغط على الأرقام السبعة بملء سببته مرّة تلو مرّة حتى صارت تضغط من تلقاء نفسها. كان أبي في البحر مع نايف ابن خاله ينعمان بذلك الزمن الذي لم يقيّد فيه الناس بعدُ إلى الهواتف النقالة والإنترنت. عادا في الثانية صباحًا. ألح أبي على نايف أن يُمضي الليلة عنده في البيت، فنام في المجلس ومضى أبي إلى غرفته. قرابة السادسة كانت المكالمات المشؤومة التي لم تدم أكثر من دقيقة أو دقيقتين. في العادة لا تدوم مثل هذه المكالمات طويلاً. حسبها أن تُشعل الفتيل فإذا وُضعت السّاعة دوى الانفجار. يتلقى المرء في حياته بضع مكالمات مشؤومة، وعندما يحين الوقت يغدو هو نفسه خبر المكالمات.

ما إن رفع أبي السّاعة حتى اندفع عمّي زيد يخبره بما لا يطيق كتمانها، ولما انتهى سأله أبي وقد اكفهر وجهه: "متى حدث ذلك؟". قال عمّي زيد إنه ظل يحاول الاتصال به طوال الليل. كان قد هاتف أيضاً عمّي الأكبر هذال فأشار عليه أن ينتظر عودة جدّي من بلاد الشام. شمّ رائحة الخطر فنأى بنفسه واستبقاها، وتلك حاسة يمتلكها كل من يؤثر السلامة والمشية السريع لصق الحائط. وإذا كان الثمن فقدان منزلة الأخ الأكبر فليكن ذلك. ليس أحب إليه من أن يُترك وشأنه فلا يُزج به في شؤون العائلة كبيرها وصغيرها.

وضع أبي السّاعة السوداء. بدت أثقل بعد المكالمات. نهض ليرتدي ثوبه المعلق على الشّاعة، ولا بد أنه عصب رأسه بالشماغ، وما كان يعصبه إلا لخطب جلال. لم أره كذلك طوال حياتي سوى مرّتين. المرّة الأولى حين مات جدّي، والثانية حين لحقته جدّتي بعد سنتين. أتذكّره يوم عدنا من المقبرة ينفخ يديه من التراب ويقول إنه ما عاد يخشى شيئاً بعد الآن. يقولها بصوت خفيض كأنه يُحدّث نفسه أو يُحدّث الموت.

خرج أبي مغاضبًا من غرفته، ومضى عبر الصالة فالمطبخ قاصدًا فناء البيت الخلفي. كان ذلك الفناء مستودعًا مفتوحًا للأشياء التي ما عادت نافعة ولا تالفة في الوقت نفسه. ولما كانت بين هذا وذاك لم تدخل البيت ولم تخرج منه، وتُركت في ذلك البرزخ حتى يُحْكَم في أمرها. شقَّ أبي طريقه بينها على عجل مُحدثًا جلبه نبهت ابن خاله النائم في المجلس فهبَّ من مرقدته ليتبين الأمر. ظن نايف أن لصًا تسلل إلى البيت فإذا هو يرى أبي عاصب الرأس وفي يمينه المشعاب. أخبره أبي أنه مضطر إلى الذهاب إلى القرية لأمر طارئ:

- البيت بيتك، سأعود في المساء.

قال نايف:

- بل أرافك.

لو كان أبي يعلم الغيب لقال إنه سيعود إلى البيت بعد سنتين وأربعة أشهر. ركب السيارة ومضيا في طريق غير طريق البحر. ما أسرع تحوُّل الدنيا. عابسان واجمان في الجيب البنية التي سلكت طريق أبو حدرية. لا بد أن أبي في الطريق قد أخبر ابن خاله بالمكاملة أو على الأقل بجزء منها، ثم كان الصمت فلا صوت غير محرك الجيب الذي راح يحتدم حانقًا مثلها. الشمس تضرب أعينها كأنها يمضيان إليها. كان الطريق خاليًا إلا من بعض الشاحنات فلم يستغرقا كثيرًا من الوقت. أقلَّ من ساعة وإن بدت لأخيه زيد أطول من ذلك حتى سئم الجلوس في البيت وراح ينتظرهما عند مفترق القرية.

- هل خرج من البيت؟

- لا، ما يزال يختبئ هناك.

هزَّ أبي رأسه كأنه يتوقع هذا الجواب، أو ربما كانت حركة وعيد صامتة.

تصحو القرية مبكرًا حتى في العطل. صياح الديكة والأطفال يرتفع من البيوت التي لها لون الجير الأبيض. يحيط تلك البيوت حزام أخضر يبلغ طوله مئات المغارس، والمغرس وحدة قديمة لقياس الأراضي الزراعية. تشتبك على امتداده المزارع فلا أسوار تفصلها، إذ لطالما اختلف أصحابها فحملوا أوراقهم المصفرَّة إلى المحاكم للتنازع حول مغرس هنا ومغرسين هناك. الساعة تجاوزت التاسعة صباحًا. خرج بعض الرجال لقضاء شؤونهم الصغيرة. ما يزال مبكرًا الذهاب إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة. تبادلوا السلام في الأزقة الترابية فليس فيهم من لا يعرف الآخر. لا غرباء في القرية.

أبي وابن خاله نايف جالسان في المجلس العالي المزين بالزخارف والنقوش الجصية. يصب زيد القهوة واقفًا، فيشير له أبي قائلاً: "اجلس، ليس ثمة غريب". من التقاليد ألا يجلس حتى يلح عليه الكبير بذلك. يؤكد زيد أنه يفضل الوقوف حتى يلمح الوغد من النافذة إذا خرج. يقول أبي: "إنه لن يخرج".

للمجلس نافذتان، شمالية وشرقية. تُفتح الأولى طلبًا للهواء البارد، والثانية طلبًا للضوء وهي التي يرصد منها زيد الآن كل خيال في الزقاق. المجلس ينفصل عن البيت بمدخله الخارجي ويتصل به عبر باب داخلي كعادة ذلك الزمن ليحفظ خصوصية الأسرة. في الداخل فناء عربي مستطيل، والفناء حلُّ عمراني عظيم في المناطق الحارة والرطبة، يمدُّ الغرف المحيطة بالهواء والضوء وتمكده بدورها بالظلال. تتوسط الفناء بئر وبضع نخيلات وما يشبه الليوان حيث يجتمع أفراد العائلة لتناول الطعام.

كان جدِّي قد بنى بيتًا صغيرًا بجانبه لعمِّي هذال عندما تزوج، وما إن رزق عمِّي بابنه الثاني حتى ضاق عليه البيت فخرج وتركه للغبار والعناكب. هناك سيَجُرُّ الرجل الذي يختبئ في بيته. كان عليه بالطبع أن يختبئ في مكان آخر. لا يعود البيت بيتًا حينما يطاردك أحدهم، بل يتحوَّل إلى مصيدة خرسانية عملاقة. أغلبهم يقعون في الخطأ نفسه. إذا مسَّهم الفرع مشوا نيامًا إلى تلك الجدران الأليفة التي سرعان ما ستطبق على أقدامهم.

لا يختبئ إلا الخائف. أيُّ ذنب اقترف ذلك الرجل، أم كان بريئًا؟ والأبرياء يخافون، ولخوفهم أكبر من خوف المذنبين في معظم الأحيان. يخاف المرء حالما يشعر بدنو الخطر، ولقد أندرته غريزته بذلك فلزم البيت. ينتظر وقوع البلاء فيمر الوقت بطيئًا. ويمر أبطأ على الرجال الثلاثة في الجوار. قال زيد:

- لا بد أن نُخرجه من ذلك الجحر.

سأله أبي:

- متى رأيتَه آخر مرّة؟

- لم أره منذ يومين.

ما كان الرجل ليخاف عمِّي زيد لو تقابلا، ذلك أنه يكبره عمرًا وجسمًا، ويعرف أحدهما الآخر، فهما صديقان قديمان، وجاران قريبان يلتقيان في كل يوم تقريبًا. ولو لم تجمعهما الصداقة أو الجيرة لالتقيا بالمصادفة التي تجمع أهل القرية أكثر من المواعيد.

- اذهب إذن واطرق باب الخسيس، فإن خرج فيادره بالحديث كأن شيئًا لم يكن، وإذا اطمأن لك فحاول أن تمشي به صوب بيت هذال حيث سنكنم في انتظاره.

فتحت الباب أخته الصغرى فاطمة. مدّت عنقها فبرز وجهها الدائري الباسم كاشفًا عن سنٍّ أمامية مفقودة، وابتسامة تجلب الرزق. تعرف هذا الجار، فليست أول مرّة تراه يأتي إلى أخيها. لطالما مازحها زيد ولاعب جديلتيها المتبتتين عارضًا عليها أن يقايض إحداهما مقابل إحدى أسنانه. كلما سارعت إلى فتح الباب نهرها أخوها. كانت أمها تنهاها حتى عن النظر إلى الشارع بقولها: "إياك، الشارع رَجُل". بيد أن أخاها هذه المرّة هو من دعاها بنفسه لتخبره من الطارق. التفتت ضاحكة تقول: "إنه صديقك زيد". وقف أخوها غير بعيد منها. رأى جاره زيد يقف وحيدًا فاقترب والشك يخامرُه. أمعن فيه النظر. هذا وجه صديقه المألوف ليس فيه ما يثير القلق. لا بريق للشر في عينيه. لعله لم يعلم بما حدث. يميل الإنسان عادةً إلى ما يُطمئنُه. أيكون قد أسرف في الحذر وحبس نفسه من غير داع؟ دخل عندئذ حصان طروادة. يخطئ من يظنه الهيكل الخشبي العظيم، إنما هو ألا يحترس المرء لاعتقاده بأنه بات في مأمن. سأله زيد عن أحواله، فقال إنه يشعر بالإعياء مؤخرًا ويشكو من صداع فظيع.

- لم لا نتمشى قليلاً وندجّن؟ المارليورو كالبنادول للرأس، بل أحسن.

وبينما يدخن إذ زايله الخوف فابتعد قليلاً عن البيت حتى ما عاد يفصله عن الكمين الذي أُعد له غير عشرة أمتار.

ما عاد نعير يدخن في السر منذ اليوم الذي تحدى فيه خوفه وأشعل سيجارة على مرأى أبيه في البيت. لقد تجاوز سن المراهقة ولم يعد لأحد وصاية عليه. الحكومة تقول ذلك. صار نعير ولي أمر نفسه. لقد بلغ الحادية والعشرين من العمر. يقول الأجداد إن الرجل في هذا العمر ينطح المواجه، فإن تقاعس عنها فليس في حياته ما يدعو إلى الفرح كما ليس في مماته ما يدعو إلى الأسى. يقولون أيضًا إن الحرّ يقوقي في البيضة، أي حتى قبل أن يولد، لا يحتاج ليكشف عن نفسه إلى كل هذا العدد من السنين. أما نعير فيقول إنه فعل ما يجب على الرجل فعله حين التحق بشركة أرامكو. اكتمل أو كاد. ليس عليه سوى أن يجمع المال لشراء الميتين وأربعين (240L). كانت تلك السيارة التي تنتمي إلى الجيل الخامس من نيسان لوريل حلم الشباب آنذاك، وقد قتلت كما تفعل الأحلام كثيرًا منهم. يتخيّلها واقفة عند الباب بواجهتها المرتفعة قليلًا مثل أنفٍ مختال. يتخيّل أنوارها الخلفية المستطيلة التي أبدع المهندسون في تصميمها لأنها صُنعت كما يزعم حتى تُرى من الخلف وهي تسبق السيارات وتتقدم الطريق. يتخيّل كراسيها الحمراء الوثيرة، ونوافذها التي تنزل مائلة -على عكس السيارات- ليخرج رأسه منها ويغازل المارّة. يتخيّل أنه يغسلها بعناية نهاية اليوم، حتى يوقظه صوت المشرف من تحيّلاته فيصحو والسخام يعلو وجهه حيث يعمل في حقول الزيت. يقوم نعير بتمديد الأنايب -يوم كان الإنسان ما يزال يشارك الآلة بعض الأعمال- ويحلم أن يكون موضع ثقة المدير الأمريكي في غضون خمس سنوات أو أقل حتى يصبح مشرفًا هو الآخر. لم لا؟ كان يحلم أيضًا إلى جانب السيارة ومنصب المشرف بامتلاك سطح لتربية الحمام بعدما منعه أبوه من ذلك.

لنعير شعراً فاحمٌ تعهده الحلاق بالموسى مذ كان طفلاً، ولما دخل المدرسة رُقّي من الخلاقة العسكرية إلى حلاقة التواليت المدرسية. تلك الحلاقة التي لا يعود المرء بعدها في حاجة إلى المشط، إذ هي حلاقة وتسريحة في الوقت نفسه. وما إن عمل وصار لعرقه أجرٌ معلوم حتى ترك شعره ينحدر إلى كتفيه العريضتين أسوءً بشباب ذلك الزمن، ومعاندةً لأبيه. خُلِق الإنسان جحودًا، وليس أكثر من جحود الأبناء لأبائهم إلا جحود الناس لربهم، كما يقول شيخ القرية كلما راح يشتكي إليه الأب الساخط. وما كانت كلمات الشيخ لتواسيه أكثر من الوقت الذي يستغرقه ليعود من المسجد إلى البيت، فإذا رأى ابنه يصول ويجول بغدائه السوداء أخذ يردد على مسامعه بعض الأمثال اللاذعة التي تُقال لتغيظ السامع لا لتنصحه.

كم حكى نعير لزيد عن غرامياته المتخيّلة على هذا الزقاق الذي يمشيان فيه الآن إلى البيت المهجور. حدّته ذات مرّة عن دوروثي زوجة المدير التي تطوف بدراجتها كل صباح في المجمع السكني المغلق، وتغنّى بساقيها البيضاء الطويلتين اللتين كان قد لمحهما من خلال قضبان السور، وبالجليب الذي رآه بأم عينيه يتدفق في عروقها الشفافة، وتغنّى كذلك بالولد الأشقر الذي أنجبته في مزاج عالٍ.

ألقى نعيم السيجارة وداس عليها بقدمه، ثم توقف فجأة كما تفعل الحيوانات حين تستشعر الخطر فترتعش آذانها. أحجم عن المشي كأن شيئاً ما يدعوه إلى ذلك. هانف من الغيب، أم ريبة متأخرة، أم محض رغبة في الوقوف؟ أبي ونايف يتربصان به في البيت المهجور. يرصدان حركاته من فرجة الباب وهو يتقدم نحوهما ببطء حتى توقف. خشياً أن يعود إلى بيته فخرجا إليه يعدوان تتقدمهما الشتائم: "يا ابن الحرام...".

تصلب نعيم في مكانه. أدرك عقله الفخ في تلك اللحظة، أما جسده فقد استغرق بضع لحظات حتى يستجيب. وعندما همَّ بالفرار سدّد زيد لكتمته الأولى فسال الدم من أنفه، وأحاطه أبي ونايف من الأمام والخلف، ثم ساقوه بالأيدي والأقدام إلى بيت هذال. ظل يرفس حتى عتبة البيت، ولما أدخلوه تهاوى على ركبتيه مستسلماً. صُفِق الباب فلا مخرج. أخذ أبي المشعاب وهوى به على ظهر نعيم فانبطح على الأرض يصرخ من الوجع. ضربه مرّة أخرى فراح يتلوى يمنة ويسرة. ولما انشرفت كتفه في الضربة الثالثة ارتفع عواؤه فسُمع في بيت جدّي. توالى الضربات حتى عزقت لحم نعيم الذي ظل يكرُّ على أسنانه ويتنفّض مع كل ضربة.

رأسه الأشعث قبالة الباب الموصل. عينه اليسرى تنظر من أسفل الباب إلى زقاق بيته قبل أن تغرقه الدموع. أما العين اليمنى فمغمضة لالتصاقها بالأرض.

زيد ونايف يقفان عليه مثل ملائكة الموت، لكنهما لا يكتفیان بالفرجة، بل يسددان كلما سنحت لهما الفرصة ركلة إلى طحاله أو كليتيه. كان صوت أنينه في البدء يعلو على صوت الضربات، ثم راح يخفت ذلك الرجاء الذي يرسله الجسد الممجوع حتى تلاشى. ما عاد يقوى على الأنين، أو ربما غاب قليلاً عن الوعي من فرط الألم. توقف أبي فتوقف نايف، أما زيد فراح يضرب وجه نعيم حتى دفعه أبي بعيداً:

- يكفي، خذاه إلى بيته.

مضى أبي، وجرّه نايف وزيد الذي ما انفك يشتم نعيم في غلٍّ وبيصق عليه. ألقياه بجوار الباب مثلما تُلقى أكياس القمامة، فأخذ ينشج حتى سمعته أخته الصغرى فاطمة وركضت لتفتح الباب.

جلست مزنة، زوجة جدِّي الثانية، وحدها في الفناء. ذهب الصغار إلى المزرعة وتركوا أخاهم سعدون راقداً في الحجرة. أما جدّتي وضحي فقد اغتنمت سفر جدِّي إلى الشام لتطوف ببيوت بناتها المتزوجات. أت مزنة بالشاي، والإقط، والراديو الأسود، لا لتسمع أخبار العالم فما يحدث خارج القرية لا يعينها، بل لا وجود له، إنما أرادت أن تنصت في هذه الجمعة المباركة إلى إذاعة القرآن الكريم. تمّنّت أن تكون التلاوة من نصيب الشيخ عبدالله خياط. كم حملها صوته الشجي إلى ساحة الحرم المكي. وبينما تضبط مؤشر الراديو إذ سمعت رجلاً يئنُّ في الجوار. بدا ذلك الصوت قريباً كأنه يصدر من البيت لا من بيوت الجيران. أوجست خيفة فأرسلت سمعها وراء ذلك الأنين حتى ميّزت من البيت المجاور صوت الضرب والسباب وصوت ابنها زيد. خبطت يمينها على صدرها من الهلع، وهبّت إلى ولدها الصغير سعدون (٨ سنوات): "قم يا ولدي جعلي ما ابكي زولك شف اخوك زيد".

كانت قد بكت زول ثلاثة من أطفالها حملوا اسم سعدون. ماتوا ولم يتجاوزوا سن الرضاعة. استحلقت جدِّي رشيد أن يكف عن ذلك الاسم فركب رأسه. وعندما حملت جاءها رسول في المنام يحذرنا من هذا الاسم. قال جدِّي: "سأسميه سعدون ولو مات لي عشرة أولاد. أخبرني ذلك الرسول". راحت بعدها تسأل الله ألا يرزقها غير البنات، فوهبها ولداً أسماه جدِّي بلا تردد سعدون. ظلت ترى في مناماتها ذلك الرسول يطرق رأسه حتى إذا همّت بالحديث إليه انسل بين الناس واختفى.

دخل أبي إلى فناء البيت. زيد يمشي خلفه والنشوة بادية على وجهه. أما نايف فخرج يتمشى في القرية ويدخن. سيعود ركضاً بعد نصف ساعة عندما يسمع صوت الرصاص. لقد ظن وزيد أن القصة انتهت هنا. كانوا شباناً. متى كانت العواقب من شأن الشباب؟ لكن أبي ظل ينتظر هناك تحسباً لما سيقع.

سألته مزنة:

- ما الأمر؟

قال:

- خير.

أي خير وقد سمعت ما سمعت؟ مضى أبي إلى حجرة أمه، فقالت مزنة إنها ذهبت عند أخته الكبرى. عادت تسأله بإلحاح:

- داخلة على الله ثم عليك تعلمني.

أعرض عنها وذهب ليطمئن على أخيه سعدون. تبعه زيد ليحتمي من أمه التي ستحاصره بالأسئلة

حالمآ تستفرد به.

حينما رأت أم نعيم ولدها ملقى على الأرض ولولت ولطمت صدرها. هرعت إليه فألفته مشعّثاً ملوثاً بالدم والعرق والتراب. تورمت عينه اليمنى وانغلقت. شق حاجبه وشفثاه وسال الدم على وجهه الممزق. رفعت عندئذ صوتها بالعويل: "ولدي، راح ولدي، راح ضنائي...".

خارت ركبناها. عوت وراح رأسها الذي أمسكته براحتها يجمع ويثور حتى كاد يفصل عن جسدها. ظلت تجأ مردهة: "ولدي يا ربي ولدي...". كانت مثل كل الأمهات يكفيتها من البر ألا يموت أبناؤها قبلها. لطالما أقصّ مضجعها هاجس الفقد. كلما اطمأنت إلى أنهم ما يزالون صغاراً لدغتها الفكرة. لقد شهدت في طفولتها تلك الأزمنة التي يغافل الموت فيها الأمهات ليخطف صغارهن مرّة تلو مرّة. تنجب الأم عشرة أطفال فتفقد منهم ثلاثة أو أربعة. ربما كان المعدل المرتفع للإنجاب في ذلك الزمن ردّاً طبيعياً على ارتفاع معدل الوفيات.

أخرج عويلها الجيران من بيوتهم، ولم يكن أولئك الجيران غير إخوتها وإخوة زوجها الذين سكنوا ذلك الزقاق. كانوا مجتمعين كعادتهم ضحى الجمعة في بيت أخيها الكبير عميد العائلة. تدافع إليها الرجال وخرج النسوة في إثرهم. رأوا نعيم على تلك الحال المفجعة. بدا مثل الناجين من حوادث انقلاب السيارات. أسندوا ظهره المهروس إلى الجدار. سقوه الماء حتى بلّ ريقه. هدأت شيئاً فشيئاً أنفاسه، وانتظمت إلى حدّ ما ضربات قلبه. شدّ من أزره التفاف والديه وغضب أعمامه وأحواله. إنما تكون العزوة لمثل هذا اليوم. ذهب عنه الروع وإن بقي الألم والمهانة. استجمع أخيراً قواه ثم رفع رأسه ليحجب عن السؤال الذي ما فتى يردده الجميع:

- من فعل بك هذا؟

- فياض بن رشيد.

وبصق دمًا، فصاحت الأم:

- لستم رجالاً إن لم تأخذوا حق ولدي.

صفعها زوجها ودفعها داخل البيت. التقط المشعاب وخرج إليهم يتميّر من الغيظ. أقسم مرّة تلو مرّة ليردّن الصاع صاعين. قال الرجال: "نحن معك"، وتبعوه كما تبع نايف أبي من قبل. حمل كلّ منهم مشعابه، أما الخال الكبير فخرج بالسكين. سار الجمع الغاضب. سبعة رجال يضربون الأرض بأرجلهم الحائقة يتقدّمهم الأب والخال الكبير. وفي المؤخرة، على بُعد أمتار يجرّ نعيم ساقيه متحاملاً على نفسه ليتبعهم، إذ ما كان ليفوّت ذلك المشهد ولو اضطر إلى أن يزحف على بطنه. سرّت رعدة في أطرافه حين تراءى له بيت هذال. تبعت ذلك الموكب الغاضب بعض النسوة اللاتي لم يطقن صبراً حتى يعود أزواجهن بالخبر. ليس من رأى كمن سمع. ولما صاروا عند بيت جدّي نادى أبو نعيم على أبي وهو

يتوعده ويتوعد السلالة التي أنجبته. صوت:

- اطلع يا فيّاض، اطلع كانك رجّال، لا تخبي عند النسوان...

كان زيد ينظر من فرجة نافذة المجلس إلى الجمع الثائر. كلما اقتربوا ضيقَّ الفرجة كأنهم سيدخلون عليه منها حتى كادت لا تسع بؤبؤ عينه. راعه العدد الكبير من الرجال، فركض إلى فناء البيت يخبر أبي. قال إنهم يحملون السكاكين.

ذهب أبي إلى غرفة جدِّي حيث الخزنة الرمادية التي تزن حوالي ثلاثمئة كيلوجرام. كان قد اشتراها لجدِّي الذي ما كان يَأْتَمَنُ البنك على أمواله. علَّمه أبي طريقة فتحها وإغلاقها. في الخزنة صك المزرعة والبيت وحفيظة النفوس التي حلَّت محلها فيما بعد بطاقة الأحوال المدنية ودفتر العائلة. دسَّ جدِّي تحت تلك الوثائق الحكومية وصيته التي يشهد فيها أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة لا ريب فيها... عندما قرأتها أول مرّة اقشعر بدني كأني أرى جدِّي رشيد يُمليها على فراش الموت مع أنه كتبها قبل زمن طويل من وفاته. للوصية رهبة. يتقادم الميت في الصورة أما في الوصية فيبدو كأنه قد أغمض عينيه للتوّ وفارق الحياة. في الخزنة أيضًا مسدس براوننق البلجيكي عيار ٩ ملم وذخيرة من الرصاص الحي.

أخذ أبي المسدس إلى الفناء، وراح يحشو مخزنه بالرصاص. لا يبدو في عَجَلَة من أمره. يدفع الرصاصة تلو الرصاصة في ثبات وأناة. ثلاث عشرة رصاصة. مزنة تناشده الله ألا يخرج. ابنها المريض سعدون يتلصص عليها من نافذة حجرته. ترجوه مزنة: "اخزِ الشيطان يا فيّاض، العن إبليس"، لكن أبي لا يلتفت إليها. تشدُّ ثوبه ولا يلتفت. ما كانت أمه نفسها لتفعل أكثر مما فعلت مزنة زوجة جدِّي.

زيد يقف قبالتها في فناء البيت جاحظ العينين في حيرة وذهول، عاجزًا عن تصديق ما يحدث فضلًا عن فهمه. ما كان ينبغي للأمر أن تبلغ هذا الحد. أبو نعيم على باب البيت يستعجل أبي. يكاد رغاؤه يشق حنجرته حتى خرج إليه الجيران، وتوقف لتهدئته المارّة: "اذكر الله يا بو نعيم". ولما أراد أحدهم أن يتدخل دفعه أبو نعيم بعيدًا. كان باب البيت مفتوحًا فدخل وتجاوز المجلس إلى الباب الداخلي. راح يركله بقدمه متوعداً لئن لم يخرج أبي ليكسر الباب:

- اطلع يا فيّاض، اطلع لا ادخل على حريمكم البيت.

لو كان يعلم الغيب! شدّه الخال إلى الخارج متبرماً وذكره بحرمة البيت. فتح أبي قفل أمان المسدس. ولما نادى أبو نعيم عليه هذه المرّة أجابه بنبرة حازمة:

- والله لا طلع وأنا ولد رشيد.

عبر أبي الفناء. يتبعه زيد متفادياً النظر إلى أمه التي قعدت على الأرض لا حول لها ولا قوة. ما إن تركاها خلفها حتى جرى نحوها ابنها سعدون وارتمى بين ذراعيها باكيًا.

خرج أبي بالمسدس فشخصت أبصار الرجال. تراجع أبو نعير من الذعر فتراجع الرجال من ورائه. رفع يديه مستسلمًا بلا تفكير فسقط المشعاب من يمينه. قال وقد تهدج صوته في رجاء وخوف:

- لا يا فيّاض.

عاجله أبي برصاصة مضت نحو راحة يده المفتوحة فمزقت إبهامها الأيمن. تلتها رصاصة تعلوها قليلًا صوب عضده اليمنى، فثالثة اخترقت كتفه اليسرى، ورابعة نفذت من فخذة اليسرى، وعندما أطلق الرصاصة الخامسة خرَّ أبو نعير على الأرض فجرحت الرصاصة ركبته اليسرى.

- أه... ذبحني ولد رشيد.

استغرقت زحّة الرصاص بضع ثوانٍ. أربع رمشات أو خمس رمشها الحاضرون هناك. تحوّلوا في غضونها إلى شهود كما تحوّل الزقاق إلى مسرح جريمة. أما أبي فلم يرمش.

لمسدس البراوننق القدرة على أن يطلق في الدقيقة الواحدة أكثر من خمسين رصاصة. صُمّم للهجوم وللدفاع ولنوبات الغضب والجنون. تزيد سرعة انطلاق الرصاصة على ثلاثمئة متر في الثانية. ولما كان أبو نعير يقف في زقاق لا يتجاوز عرضه خمسة أمتار، فمن الأرجح أن الرصاصة الأولى لم تمهله حتى ينتهي من قول "لا يا فيّاض".

- ذبحني ولد رشيد.

تحمشج أبو نعير، فتصاعدت تلك الكلمات الثلاث من قاع روحه وطافت على الناس تُشهدهم فردًا فردًا؛ إخوته فالخال الكبير فبقية الأصهار فابنه نعير فزيد فسعدون فالنسوة فالجيران فالمازّة، ثم مضت تطوف في الأزقة فتطرق بيوت القرية بابًا بابًا فالقرية المجاورة فالتى تجاورها حتى طرقت أذن الحكومة. تفرّق الرجال عندئذ وخلفوه ينخر طريقًا إلى جانب المشعاب. ظل ينظر إليه وهو يصطبغ بدمه. سرى الخدر في عظامه. تئاءى. غامت الدنيا وبات ينجر فشيئًا فشيئًا إلى العتمة. عندما أغمض عينيه لم يبق من جماعته في الزقاق غير ابنه نعير.

تدافع الرجال والنسوة إلى بيوتهم ما إن شخب دمه. ارتطم رجلان ببعضهما من الفرع. عثر أحدهما فنهض وترك وراءه فردة حذائه. سبقت امرأة زوجها إلى البيت فأوصدت دونه الباب. نسيته في الخارج حتى ذكّرها خبطه على الباب ولعناته.

جاء نايف. جذبه صوت الرصاص. أخبرني بالحادثة بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة. كنت قد أدركته قبل أن يموت بأسابيع فسألته عنها. قال:

- جئتُ فوجدت الرجل غارقًا في دمانه. كأنني أراه الآن. بدا مثل فأر ميّت! ظن الجميع أنه مات. التفت أبوك فرأى نعير في نهاية الزقاق يجثو على أربع. كم ذهلت لرؤية نعير هناك. ما حسبته بأمانة يقدر على الحركة بعدما كلنا له كل ذلك الضرب. كان قد شلّ من هول الموقف. لو ترى كيف تدلى فكه من الذعر وراح يزحف على بطنه حين تقدّم إليه أبوك بالمسدس فانصب زيد يحمي عنه بجسده...

قاطعته مصدومًا:

- زيد؟! -

- نعم زيد. لو تراه كيف أخذ يستحلف أباك ألا يطلق النار على نعيم: "تكفى يا فياض، تكفى يا خوي". وما كان أبوك لينصت إليه، بل لقد أطلق رصاصة في الهواء ليبتعد عنه.

سرح نايف بعيداً. ما عاد ينظر نحو ي. ثم قال وابتسامة لا تكاد تُرى على شفثيه:

- ارتفع في تلك اللحظة صوت الأذان الأول لصلاة الجمعة عذباً شجياً كأنما نسمعه أول مرّة، وكان الملايكة تنزلت علينا لحظتنا لتفرض بنفسها النزاع. عشاننا الأسي. أطرق أبوك رأسه، ولما انتهى الأذان أفلت من يده المسدس واستدار عائداً إلى البيت. حملت المسدس بيدي وأخفيت في المجلس من دون تفكير. لكن قل لي ما الذي عن لك لتسألني عن الحادثة بعد كل تلك السنين؟

وجوه على بقعة الدم

سكن الزقاق كأن المأساة لم تعصف به قبل قليل. زفر أزيز الرصاص وصياح الحناجر وضرب الأرجل وغضبة أبي. كان أبو نعيم قد نُقِلَ إلى المستشفى. أطل الجيران برؤوسهم من فُرْجات الأبواب. ليس سوى الحمام يهدل.

مشوا إلى الدم الذي تلبّد هناك. تحلّقوا حوله. وقفوا محاذرين أن تلتخ نعالهم تلك البقعة الكبيرة التي اتخذت أثر قدم لمأساة. كلما أطل أحدهم التحديق في البقعة الحمراء خال أنه رأى صورته. يبقى الدم أحمر حتى يُسْفَك، أما وقد سُفِكَ فقد راح يتغيّظ من الحمرة حتى مال إلى السواد. سيتخثر هناك حتى يغدو سميگًا كالطلاء فيتحرّس البعض - كما هي الحال عقب كل مأساة- ويتمنى لو تداركها أحدهم قبل وقوعها، لو أنهم حالوا بين المتخاصمين قبل فوات الأوان، لو أن أبي لم يطلق الرصاص، لو أنه على الأقل أطلق طلقة تحذيرية في الهواء، لو أنه أطلق الرصاص ولم يصبه، لو لم يذهب أبو نعيم إلى بيت جدّي، ليته ذهب عوضًا عن ذلك إلى الشرطة... إلى آخر تلك المقادير التي لم تُكتب. قالوا لترتاح ضمائرهم إنه قضاء الله، ولا راد لقضائه بالطبع.

أبي في المجلس الذي تقلّبت أحواله كثيرًا هذا الصباح. مجلسٌ فمرصدٌ فمخبأٌ فمجلسٌ من جديد. تناول سيجارة من زيد وأشعلها. كان أبي قد أقلع عن التدخين منذ سنوات ليتجنب السرطان، لكن أي معنى لذلك وقد صارت سلامته الآن موضع شك.

هل فكّر في الهرب؟ كان قد أدرك في صباه فُضالة الزمن الحر حين سافر بلا جواز سفر مع جدّي إلى الكويت. ولما اقتربا من مركز النويصيب الحدودي دعاه جدّي للترجل من السيارة والالتفاف حول المركز سيرًا على الأقدام ليلتقيه في الجانب الآخر.

لقد كان الهرب في ذلك اليوم ممكنًا إلى حدّ ما، نظرًا على الأقل. أما في زمننا الآن فلا يعدو الفرار أكثر من فكرة سينائية. فالوقت الذي يستغرقه أبو نعيم ليُنقل إلى المستشفى المركزي في الدمام ساعة على الأقل، ثم يُبلّغ إخوته مركز شرطة القطيف، وإن كانت إدارة المستشفى المركزي أيضًا مسؤولة عن تبليغ مثل هذه الإصابات، تلك ساعة أخرى، ثم تأخذ الإجراءات الأمنية وقتها الصلف والبطيء في تسجيل البلاغ يدويًا، ثم مهاتفة إمارة المنطقة الشرقية، ثم خروج الشرطة لمعاينة موقع الحادثة، ثم استصدار مذكرة للقبض على الجاني، ثم تعميمها في مراكز الشرطة ونقاط التفيتش، ثم استجواب الشهود، ثم مهاتفة إمارة المنطقة الشرقية مرّة أخرى، ثم منعه من السفر، ثم تعميم المنع على المنافذ الحدودية. سيستغرق كل ذلك في أحسن الأحوال من ثلاث إلى أربع ساعات. فإذا أضفنا إليها الساعتين الأوليين صار لأبي ما يكفي من الوقت لوداع قصير وعناق خاطف قبل أن يسافر بعيدًا.

على أنني لا أستطيع أن أتخيّل أبي ينسلّ من بيت جدّي مُلثمًا، يتلفت خائفًا يمينًا ويسرة، يستعجل قدميه

للوصول إلى سيارته، يركبها وينطلق مشيراً زوبعة من الدخان والغبار ليختفي معها إلى الأبد.

حُجِّل أبو نعيم إلى المستشفى البعيد في الدمام. طوي في سيارة الجيران ثم مُدِّد في مقاعدها الخلفية. انطلقت السيارة على طريق الجبيل-الظهران السريع، يقودها ذلك الجار الذي دفعه بعيداً أبو نعيم حين جاء لتهدئته قبل أن تقع الحادثة. يرافقه الأخ الأوسط الذي ما كَفَّ عن بكاء أخيه. يتلفت فيرى جسده الممزق يتمايل تارة مع الطريق ويحمد تارة مثل جثة هامدة. يراه حياً وميتاً. يضغط بيد على الفخذ المربوطة بالشماغ ليوقف الدم، ويتحسس باليد الأخرى. يحركه، يناديه، يدعوه أن يتجلد فلم يتبقَّ الكثير للوصول إلى المستشفى، يدعوه على يقينه بأنه ما عاد يسمع شيئاً. لعله كان يدعو نفسه أن تتجلد بالأحرى.

ولما تجاوزت السيارة مستشفى القطيف المركزي الواقع على الجانب الآخر من الطريق السريع تأوّه الأخ الأوسط بحُرقة وضرب على فخذه من الحسرة، إذ لم يكن المستشفى قد افتُتِح بعد. انتهوا من بنيانه وتجهيزه بالمعدات والمختبرات والتعاقد مع الكوادر الطبية اللازمة وأعلنوا في الجرائد أنهم سيفتتحونه قريباً. "لو فعلوا لربما عاش"، قالها وهو يبكي من القهر، فذكره الجار أن أخاه لم يمُت بعد.

ظل أهالي القطيف ينتظرون هذا المستشفى الموعود زمناً طويلاً ويؤجلون آلامهم. كُتِب عليهم الصبر كما كُتِب على أهل القرى، أو الخروج إلى مدينة الدمام حيث يمضي الآن الأخ الأوسط جاهلاً أن هذه الدمام لم تكن قبل مئة سنة غير بلدة تابعة للقطيف، ولما اتسع العمران في الدمام وأنشئت سكة الحديد والميناء اختيرت لتكون مقرّاً رئيسياً لإمارة المنطقة الشرقية، فنُقلت إليها الدوائر الحكومية، وأُسست تلك المكاتب التي أصبحت فيما بعد نواة لوزارات مستجدة، كمكتب العمل والعمال ومكتب شؤون الزيت، ثم أصبحت حاضرةً للمنطقة الشرقية بأجمعها. لو لم يحدث ذلك لربما كانت القطيف هي المدينة، وكان مستشفاها المركزي قد افتُتِح منذ زمن، ولتردد عليه أهالي الدمام وهم يمتنون أنفسهم بأن يكون لهم مثل ذلك المستشفى ذات يوم.

كان أبو نعيم قد نَزَف كثيراً من دمه حتى شحب لونه وصار أبيض كالطحين. ما إن وصلت السيارة أخيراً إلى مستشفى الدمام المركزي حتى تلقفه الأطباء عند مدخل الطوارئ. حملوه على نقالة يمكنها أن تتحوّل إلى نعش في أي لحظة. حشر أحدهم على الفور إصبعه في فخذه اليسرى ليحبس الدم ريثما يعصبونها بالحزام. قد تُفقد الأعضاء إذا توقف عنها الدم مدة طويلة، لكن إذا لم يتوقف النزيف الحاد يُفقد المصاب كله.

عُلِّقت له المحاليل، ونُقِل إليه الدم، وحُقِن بأدوية الأينوتروب التي ترفع ضغط الدم عملاً ببروتوكول الإسعاف، ونُودي على فريق الإصابات ليهرع الأطباء المناوبون من مختلف التخصصات؛ جراحة، عظام، أعصاب... فيبقى منهم من تستدعي حاجة المصاب إليه وينصرف الآخرون. القاعدة الطبية

الأولى تقتضي تأمين الأكسجين للمصاب. أنبوب في الفم للتنفس الصناعي ما لم يكن هناك كسر واضح في القصبة الهوائية يسد مجرى الهواء. عند ذلك يُشق أسفل الرقبة بعد التخدير ليُحشر فيها الأنبوب. ولما كان أبو نعيم ما يزال ينزف بسخاء نُقل إلى غرفة العمليات في الوقت الذي نُقل فيه الأخ الأوسط والجار إلى غرفة خلفية لشرطة الدمام من أجل التحقيق. كانت شرطة القطيف قد علمت بالحادثة قبلهم وباشرتها.

يُصدَم الجسد عندما يتعرض لعيار ناري، وتتفاوت درجة الصدمة وخطورتها - ما لم تكن الإصابة قاتلة - تبعاً لما ينزفه من دم. الدرجة الرابعة هي الأخطر، إذ ليس ثمة درجة خامسة. يحتوي جسم الرجل على نحو خمسة لترات من الدم - غالون ونصف تقريباً - فإذا تجاوز النزيف لترين يفقد أكثر من ثلث دمه. عندما يخسر الجسد هذا المقدار الهائل من الدم يغدو العقل مشوشاً، يتناقص الوعي تدريجياً حتى ينتهي به المطاف في غيبوبة. يرشح الجسد العرق لأن القلب يبذل جهداً مضاعفاً ليضخ الدم. وللحفاظ على مستويات الأكسجين في الدم تتسارع نبضات القلب فتتجاوز في الدقيقة مئة وستين نبضة. لو كان رياضياً أو شيخاً طاعناً في السن لما ارتفعت أكثر من المعدل الطبيعي لأن نبضهم منخفض في الأساس. يدافع القلب ليحافظ على ضغط الدم الذي انخفض بشدة، وليبقى القلب على قيد الحياة يضمن بالدم على الأعضاء ما عدا الدماغ - كما يضمن رب الأسرة على أبنائه بالمال عند الأزمات - فلا يمنحها إلا القليل من الدم، مما يتسبب في اختلال وظائفها أو تضررها إذا طال أمد النقشف.

كان أبو نعيم في تلك الدرجة الرابعة. أدرك الأطباء ذلك في الحال، إذ كانت العلامات كلها تشير إلى ذلك؛ الحالة العقلية، ضغط الدم، معدل التنفس، اللون الأبيض، معدل ضربات القلب...

مُدَّت في غرفة العمليات أيدي الجراحين لانتشاله من الموت، على أمل ألا يكون الأجل هو من يشده في الجهة الأخرى. لا بد أولاً من إيقاف النزيف. وقف جراح الأوعية على شريان الفخذ الذي تهتك بإحدى الرصاصات. كان عليه ليمنع النزيف أن يضع دعامة أو يغيّر مسار الشريان فيقطع وريداً من القدم ويصنع منه تحويلة أو وصلة للشريان. أخذ جراح آخر يمسح جسده فيتعقب الثقوب في العضد اليمنى والكتف اليسرى ليُعقمها ثم يرتقها بخيوط من السلك أو النايلون أو أي نوع آخر من الخيوط التي لا تمتصها الأنسجة، ولما انتهى منها أمسك بالإبهام المقطوع وراح يلحم الجلد بالجلد. خرج بعدها الأطباء وقد علموا أنهم بذلوا ما بوسعهم للمصاب الذي بات الآن تحت رحمة الله. متى لم يكن كذلك؟

عندما وصلت الشرطة كانت أنوار عرباتها الزرقاء والحمراء تومض، ويعلو منها ذلك الصوت الذي يرهبه الناس وتنقبض لسماعه الأنفوس. كادت تتجاوز بيت جدِّي لولا أن تنبَّهت للجمع المحتشد في الزقاق. توقفت السيارة الأولى وترجَّل منها ضابط برتبة ملازم، وتوقفت السيارة الثانية وانتشر منها العساكر. أشار الناس بسباباتهم إلى بيت جدِّي قبل أن يتوجه إليهم أحد بالسؤال، ثم تراجعوا قليلاً ليفسحوا لأفراد الشرطة الطريق. كان ثمة فصل أخير للفرجة.

أُخليت دائرة من الزقاق يبلغ قطرها خمسة أمتار، ومركزها بقعة الدم. تفرَّق العساكر في محيطها فأبعدوا الناس حتى أُخلي الزقاق بالكامل. راحوا يمشطونه ويجمعون من الأرض فوارغ الرصاص، والسكين التي وقعت من الخال، والعصي المتناثرة هنا وهناك، وكل الأدلة الجنائية التي يمكن التقاطها من مسرح الجريمة. وعندما حمل أحد العساكر فردة حذاء كان قد تركها أحدهم رمقه الملازم فألقاها بعيداً. كان الملازم يأمل في العثور على سلاح الجريمة لا على فردة حذاء تدل على أن أحدهم قد تعثر وخلفها وراءه. ستغدو تلك الفرده فيما بعد نادرة من نوادر القرية وإن ردَّ صاحبها قائلاً -ومعه حق- إن العيش بنعل واحد خير من الموت بنعلين. وطأ أحد العساكر شيئاً ما على الأرض. انحنى قليلاً وتفحصه. لم يكن رصاصة، كان ذلك نصف الإبهام المتور وقد غطاه الدم والتراب. ركله وراح يكمل بحثه عن الرصاص. ما إن ابتعد حتى دنا قِطُّ من الإبهام وأخذ يشمه في فضول.

خرج أبي، فتهامس الجيران لمراه، والتفت نحوه الملازم والعساكر. قال أحدهم بصوت خافت: "هذا الذي أطلق الرصاص".

خرج رافعاً هامته. لا يكاد يكظم غيظه مثل رب أسرة أزعجه صخب الجيران فخرج لتوبيخهم. حدَّق في عينيَّ الملازم تحديقة سيسعى الملازم جاهداً إلى تكسيروها. سيأمر بتقييد أبي فتُغَلُّ يداه وتُجرَح ساعة الرولكس الذهبية، ويُقاد إلى عربة الشرطة: "خذوه إلى الحجز". رأى الملازم بعد ذلك أن يعزله عن أخيه زيد وعن خصومه أيضاً، فأمر باقتياده إلى السجن. ما كان السجن يبعد كثيراً عن المركز، وكان الملازم نفسه هو المسؤول عنها. والقوانين واللوائح؟! كان الملازم قد أرسل خطاباً إلى المديرية العامة للسجون يدعو فيه إلى بناء مركز جديد وغرف أكبر للحجز، وحتى ذلك الحين سيفعل ما يراه مناسباً، ثم إن أبي في نهاية المطاف ذاهبٌ إلى السجن لا محالة.

حُسر في السيارة الثانية عمِّي زيد والخال ونعير. أما نايف فلن يُقبض عليه إلا في اليوم التالي حينما يذهب لزيارة أبي، وسيُطلَق سراحه بعد ساعات، إذ لن يتعرف عليه نعير عندما يستوقفه الملازم ويعرضه عليه.

كان نايف قد حلق لحيته وشعر رأسه فاختلف شكله كثيراً حتى بدا أقل شبهاً من هيئته نهار الحادثة.

سيتذكر نايف ذلك ضاحكًا ويُعلّق في سخريّة بقوله إنه ما كان بحاجة إلى أن يخلق أو حتى أن يتنكر، فلقد تلقى نعيم من الضرب ما لا يجعله قادرًا على تذكّر أي وجه، بل لقد كان محظوظًا حين لم يفقد ذاكرته.

ستظل هوية الرجل الثالث مجهولة للشرطة ولنغير على حدّ سواء، وسيفلت إثرها نايف من حكم بالسجن لثلاثة أشهر.

توافد أهل القرية على مركز شرطة القطيف. انتظم طابور طويل أمام غرفة الاستجواب. كلما دخل أحدهم على الملازم راح يحدّثه بما رآه، فإن لم ير شيئاً حدّثه بما سمع. قالوا جميعاً إن أبي هو الذي أطلق الرصاص.

سألهم الملازم:

- لماذا؟

قصّ عليه الأحوال والأعيام القصة مذ خرجوا له بعد أن ضرب ابنهم نعيم.

- وما الذي فعله نعيم؟ لا بد أنه فعل شيئاً، أليس كذلك؟

ران عليهم الصمت، رجعوا إلى أنفسهم فتذكروا أنهم لم يسألوه، ثم قالوا في عنت:

- لم يفعل شيئاً.

ثم حان دور زيد للمثول أمام الملازم. قال إنه لم ير شيئاً مما حدث، إذ قضى الصباح كله مع إخوته الصغار في المزرعة. بدا أنه يكذب، بل لقد بدا جلياً أنه نفسه لم يكن يصدّق ما يقول. احمرت أذناه، واضطربت من التوتر قدماه فارتطمتا أكثر من مرّة بقوائم الطاولة، وراح يتفادى النظر إلى الملازم الذي تفرّس فيه طويلاً ثم قال:

- لا تريد أن تشهد على أخيك؟ لا بأس، لدينا من الشهود ما يكفي ويزيد، لكن لمصلحتك الشخصية يا زيد، في التحقيق التالي، لا بد أن تغيّر أقوالك.

دخل بعده نعيم. كان النصف الأيسر من وجهه قد تورّم بالكامل. ستلزم تلك الكدمات الأرجوانية بضعة أسابيع حتى تمتص أنسجته الدم ويتعافى. خطر في بال الملازم أنهم أبرحوه ضرباً. رمق عين نعيم التي تورّمت حتى بدت مثل كعب القدم الجانبي، وتصوّر اللكمة الخاطفة التي أغلقتها. كان الملازم ملاكماً هاوياً لا يتورع عن تسديد لكمة كلما سنحت له الفرصة في السجن. عُرف بين أفراد المركز بتكبّره وقسوته وتجاوزاته على السجناء والعساكر، بل حتى النظام نفسه.

قصّ عليه نعيم بلسانٍ ثقيل ما كان قد سمعه أكثر من مرّة، حتى سئم الملازم من سماع تلك الشهادات المكررة. استرخى وشرّد بعيداً حتى قال نعيم ما هزّ كتفي الملازم فأفاقه من شروده. طلب منه أن يُعيد ما قاله مرّة أخرى. قال نعيم إن أبي يطلق الرصاص عليه هو أيضاً لولا تدخل زيد.

- لكن زيد قال إنه كان في المزرعة، ولم يشهد إطلاق الرصاص.

- يكذب، بل لقد وقف بجسده مدافعاً عني.

- ألم تقل قبل قليل إنه من ضربك؟

- بلى، لقد تكالب الثلاثة عليّ؛ زيد وأخوه الكبير فيّاض ورجل ثالث لا أعرفه. أرجو أن تأخذوا حقي منه أيضاً، لا تدعوه يفلت منكم.

- لن يفلت، لا تفلت، لا تفلت، لا تفلت منا أحد. لكن قل لي لماذا تكالب عليك الثلاثة؟

تلعثم نعيم ثم راح يلف ويدور فلا يجيب عن السؤال. ارتفع حاجبا الملازم في ضجر. تأفف. ما من أحد يجلس على كرسي الاستجواب إلا ويكذب أو يكتم سرًا. زيد يكذب وهذا يخفي أمرًا ما.

أرجأ الملازم استدعاء أبي للتحقيق ريثما يعثرون على سلاح الجريمة لمطابقة فوارغ الرصاص المرفوعة من الزقاق. كان قد أرسل مساعده لمعاودة تفتيش بيت جدّي رفقة العساكر، فالمادة الرابعة والأربعون من نظام الإجراءات الجزائية تُجيز في حال التلبس بالجريمة أو عقب ارتكابها بوقت قريب تفتيش مسكن المتهم وضبط ما فيه من الأدلة، إذا اتضح من أمارات قوية أنها موجودة في المسكن. سيجدون مسدس البراوننق مدسوسًا تحت سجاد المجلس ويثبتون ذلك في المحضر ويُعزّم أبي لحيازته سلاحًا غير مرخص. كانت الغرامة المالية في تلك الأيام خمسة آلاف ريال، أما اليوم فمئة وخمسون ألفًا، لكنها أهون ما سيلقاه أبي من العقوبات.

تلقى الملازم في تلك الأثناء مكالمة من شرطة الدمام تفيد بأن عميدًا سيأتي في الغد ليتسلم ملف القضية. تملكه الغضب، لكنه -وقد دُرّب على الطاعة- تطامن وأذعن.

وقف أبي على باب الزنزانة طويلاً. كان قد وضع قدمه على عتبتها قبل ذلك؛ تحديداً في اللحظة التي أطلق فيها الرصاص. أجال نظره في الجدران الخائقة التي ترشح الرطوبة والعطن كما ترشح الأجساد الصهد والعرق. لطالما وقف السجناء الجُدد تلك الوقفة المشمّزة، ربما سد أحدهم أنفه كما يفعل الضباط في العادة، لن يعدم في تلك الأثناء اعتذاراً ساخراً من السجناء القدامى عن تواضع المكان وعدم لياقته بالضيوف، ولن يعدم بعد ذلك بعض التعاطف والمواساة، إذ ينطوي السجين الجديد على نفسه في الليلة الأولى فلا يتحدث ولا يأكل. ثمة وجبة زائدة في تلك الليلة.

لم تَمْضِ ساعات على دخول أبي السجن حتى عرف تهمته كلُّ من في الزنزانة. وما كان ذلك ليحدث لولا الغضب الذي استبد بالملازم بعدما نُزِع من يده ملف القضية. راح يتجول ساخطاً بين عنابر السجن فيتحرش بهذا وذاك كعادته حين يبحث عن متنفسٍ لحنقه. لقد خَبر السجناء مزاجه المتقلب حتى باتوا يلقبونه سرّاً بـ"الحائض".

توقف الملازم عند سجين قديم ورمقه في ازدراء:

- أنت أيها الأسود، ألم تخرج بعد؟ أم تفضّل الإقامة في هذا المنتجع؟ لعلك لا تستطيع أن تفارقنا بعد كل هذه السنوات. لا تهون العشرة إلا على أبناء الحرام.

سخر الملازم شامتاً، فضحك مساعده. تجاهله السجين متظاهراً بالصمم، فكبّر على الملازم تجاهله واقترب فدفعه:

- لم لا تجيب؟

أطرق السجين رأسه، فدفعه الملازم بقوة:

- لم لا تجيب؟

ولما دفعه في المرّة الثالثة امتدت يد أبي فمنعته. ثار الملازم وهمّ بضربه، فطرحه أبي أرضاً وأشبعه ضرباً. تعالَى هتاف السجناء، إذ ليس منهم من لا تراوده نفسه بفعل ذلك. حالوا بينه وبين مساعده حتى تسابق العسكر فتدخلوا لنجدة الملازم. لم يستغرق كل ذلك أكثر من دقيقة أو دقيقتين، إلا أنها كانت كافية لكسر شوكة الملازم والسجن كذلك. لم ينم السجناء من الحماسة تلك الليلة كأنها ليلتهم الأخيرة في السجن، بل إن بعضهم راح يقلّد الملازم وهو يتهم على ذلك السجين ثم ما يلبث أن ينبطح على الأرض يئن ويخبط الهواء برجليه.

يعرف الملازم الذي يكاد يموت في مكتبه من الغيظ أن نظام السجن والتوقيف يكفل له إيقاع أشدّ الجزاءات على أبي. له أن يكبّله ويجلده ويجبسه انفرادياً لأسبوعين ثم يضاعف المدة ويجرمه بالطبع من كل امتيازات الزيارات والتراسل. ويعرف أيضاً أن المادة رقم ٢٨ لا تجيز الاعتداء على المسجونين -وقد اعتدى عليهم مراراً من قبل- وتنص على اتخاذ إجراءات التأديب بحق من يفعل ذلك. ولما كانت

شرطة الدمام قد أعلمته بإرسال عميد في الغد لاستلام القضية رأى أن يكظم غيظه حتى حين. أقسم مرة تلو مرة ليجعلن هذا الفيّاض عبرةً في تاريخ السجون.

نهض من مكتبه قبيل الفجر فوقف أمام الزنزانة وتوجّه بالحديث إلى أبي قائلاً:

- ليكن في علمك يا فيّاض أن الرجل قد مات. سنأخذك إلى ساحة الجامع للقصاص في أي لحظة. كن مستعداً.

ذُهل السجناء حتى إنهم لم يأنهوا للملازم حين التفت نحوهم متوعداً أن يُلقن العنبر كله درساً لن ينساه.

كان أبي مستنداً إلى الجدار. لم يلتفت. لم تصدر منه أي نامة أو حركة كأن عنقه لن تُضرب بالسيف عما قريب. عرض عليه أحدهم سيجارة، فأوماً أبي بيده إيحاءة تجمع بين الشكر والرفض. قال آخر بصوت خفيض بعد دقائق:

- ربما تود أن تتوضأ وتصلي.

فأعاد أبي تلك الإيحاءة. لزم الصمت فلزموه. رقت قلوبهم فسهروا يرقبون ما سيحدث له. أما هو فظل ساهماً حتى نُودي عليه عصر اليوم التالي. انتصب متأهباً، ولما كان النداء لأكثر من سجين أخبروه أن هذا وقت الزيارة وليس -كما يظن- وقت القصاص.

هبطت الطائرة القادمة من بلاد الشام واندفع من بابها جدِّي رشيد فنهب السلم والمدرج ومبنى المطار وانطلق نحو السجن. غالبًا ما تقع السجون خارج المدن كما هي حال المقابر والمزابل وكل ما ترغب المدينة في إخفائه. جاء الأهالي كعادتهم من الصباح الباكر مع أن باب السجن لن يُفتح قبل الرابعة عصرًا. ما إن صلصل حديده الصلب حتى تدافع الزوّار. لو سُمِعت تلك الصلصلة في مكان آخر لكانت مصدرًا للشعريرة والإزعاج، لكن أهالي السجناء لا يسمعون فيها غير غمغمة أبنائهم. ما أسعد الأهالي يوم الزيارة وما أشقاهم. إن من ينظر إليهم حينما يدخلون لا يكاد يعرفهم وقت الخروج. ارتفع صوت جدِّي فوق رؤوس الزوّار مقعقعا في جنبات السجن حتى بلغ أبي:

- رفعت راسي يا فيّاض، بيّضت وجهي يا فيّاض.

تلقت العساكر والزوّار والسجناء. لم يعهدوا من قبل هذا الهمّات الصاخب في السجن. لقد كان الحديث أكثره يسري هنا خافتًا بين الأيدي والأعين. الكف على الكف. راحة الزائر تهمس إلى عروق السجن، وأعين الأمهات تشرق بالدمع ناكثةً تلك العهود التي قطعنها في الليلة الفائتة، وسكتات تقول أكثر مما تقوله الهمهمات. استغرق العساكر بضعة أيام ليألفوا هذه المشاهد الحزينة حتى ما عادت تُحرّك فيهم شعرة، مثلما تعود الأطباء على الألم وحفارو القبور على الموت.

- رفعت راسي يا فيّاض، بيّضت وجهي يا فيّاض.

عانقه جدِّي رشيد عناق الخروج من السجن لا الدخول إليه. وبعد قبّلات الوجه والرأس أخذ صوته ينخفض تدريجيًا، وكلما خفت نبرة الصوت ثقل الكلام. تلقت جدِّي رشيد ولما اطمأن إلى المسافة بينه وبين العساكر همس في جوف أبي بضع كلمات ثم ران عليهما الصمت الثقيل. قال أبي:

- بلغني أنه مات.

قال جدِّي رشيد:

- حقًا؟! لا أدري. جنت رأسًا من المطار. ليمت عليه اللعنة.

قالها وبصق دونها اكترات للسيف الذي راح يلوح لرقبة ابنه ما لم يعف عنه أولياء الدم؛ ورثة القتل؛ نعيم وإخوته وأمهم.

وُلِدَ جدِّي رشيد في بادية الشمال. فارقها في العاشرة من عمره يوم أرسلت الدولة السعودية أباه إلى القرية كما أرسلت الشيوخ والأئمة إلى القرى النائية ليخطبوا في الناس ويؤمّوهم ويحفظوا أبناءهم القرآن. ولما بلغ جدِّي رشيد أشدّه واستوى تنبّه إلى الفروق الكبرى بين البادية والحاضرة، فالأبقار في القرية خيرٌ من الإبل، وما لا يصحُّ هناك ربما كان عين الصواب هنا. وهكذا دعا أباه ليشتري مزرعة نخل، مما دفع الشيخ البدوي إلى أن يدمدم من الغضب:

- أتريد يا بني أن نعمل في الفلاحة؟

- بل في التجارة يا أباي.

اشترى جدِّي رشيد بالدين مزرعة صغيرة واستأجر لها الرجال، وراح يسافر إلى نجد لبيع محصولها من التمور بضعف ثمنه. وما كان ليقف مكتوف اليدين في مزرعته حتى تمهه في الصيف التالي غلّة أخرى. راح يشتري ويبيع كل شيء حتى بضائع المهريين. سرعان ما تضاعفت مساحة المزرعة وعدد النخيل ومن يعمل عليها. جرى المال في يديه، وصار ذلك المدين دائنًا كبيرًا، حتى إن بعض الفقراء المساكين كانوا يسألون الله أن يوسّع في رزق جدِّي رشيد حتى يستطيع إقراضهم عوضًا أن يسألوا الله الرزق الوفير. ولما هجم اللصوص ليلاً على مزرعته وسرقوا النعاج خرج ببندقيته وراح يتعقبهم واحدًا تلو واحد - كما كان يتعقب الذئب في مراهقته - فلم يطلع الصباح حتى سحلهم في أزقة القرية على مرأى الناس، وما كان ليرحمهم على الرغم من استعطاف أبيه الذي هرع من المسجد عند سماعه الخبر ليرى ابنه الوحيد يبطش ببطش الجبابرة. كانت لجدِّي هيئتهم. الطول الفارع الذي يستخف بالأبواب والسقوف، الجسم العظيم الذي ترهبه العين والنفس مخافة ثورته، الحنجرة التي تشرخ الجدران قبل الأذان، النظرة التي تقتل أو تُجبل لو كانت النظرات تفعل ذلك. وكانت له قدرتهم أيضًا. كم كنت أخافه في طفولتي، وحين كبرت خفته أكثر.

اشترى جدِّي ثلث القرية وامتلك زمامها، وشيّد بيته الكبير عند رأسها راصدًا الداخل والخارج من الإنس والجن. لا بيع يتم أو دين أو صلح أو حتى زواج إلا بمباركته. ولما مات أبوه دعا رجال القرية ليتقدم ويخلفه في إمامة المسجد فتحجج بانشغاله. يومًا بعد يوم صار جدِّي زعيم القرية أو جمجمتها، كما تقول العرب في الأزمنة القديمة، أما عمدة القرية فلم يسمع به أحد، وكذلك الإمام الجديد.

خرج جدِّي رشيد من السجن بعد زيارة أبي قاصدًا القرية. ما إن دخلها حتى أدرك أن أبا نعيم ما يزال حيًّا لم تغرر روحه بعد. لو مات لشاع الحزن في القرية، فالحزن جماعي هناك. إذا شقَّت أرملةٌ جيبها شُقَّت في الحال جيوب جاراتها، كأنهن يلبسن الثوب نفسه.

لم يمُت أبو نعيم، لكنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. قال أحدهم إنهم قد ينعونه في أي لحظة. لقد كذب الملازم ليتتقم من أبي إذن.

دعا جدِّي رجال القرية إلى وليمة في الزقاق الذي شهد الحادثة. فُرش السجاد الأحمر العتيق على الدم. ما إن أقبل الحضور حتى استنشقوا الرائحة بعقولهم لا بحاسة الشم. تقدمهم شيخ القرية يحدوه أمل بالمصالحة حتى رأى الرشاش مرفوعًا في يد جدِّي رشيد. حيَّاهم ودعاهم لشرب القهوة ثم ألقى عليهم قصيدته التي كان قد أعدها في الطريق من السجن إلى القرية.

حنا الفخر واصل الفخر يوم كئنا

هاماتنا ما دَنَقَت للسفالة

يا جاهل في سلم الاجواد حنَّا

نطبخنا بالكون نيتم عياله

من زان زئنا له ومن شان شئنا

نرد للمخطي علينا خماله

فياض ما قصرت سديت عنا

عسى يمينك ما تجيها الكلالة

خليت ابو نعيم طريح يوتنا

والمعتدي حقه علينا الرزالة

لا يحسب العزوة تنجيه منَّا

حرام غير الحقه عمه وخاله

حمل جدِّي رشيد الرشاش، وأطلق زخة من الرصاص لعلعت في السماء، ثم أقسم أمام الملاء متوعدًا أن يُلحق الخال الذي انتهك حرمة بيته بأبي نعيم، ليجاوره في العناية المركزة عسى أن يرافقه بعد ذلك إلى جهنم.

ما إن أشرقت الشمس على الخال الذي أُهدر دمه إلا وقد ابتعد كثيرًا عن القرية، حتى بات بمقدوره الالتفات إليها من دون خوف. هربَّه الشيخ ليلتها بعد أن اضطر الخال إلى أن يمشي على أطراف أصابعه فوق سطوح الجيران كما تمشي القطط. أضاف جدِّي رشيد إلى قصيدته بضعة أبيات يوثق فيها حادثة الهروب الليلي والجللاء الجماعي إلى بقيق، إذ سيلحق بالخال إخوته وأقاربه في اليوم التالي، ويتركون القرية كلها إلى غير رجعة.

ليس أطول من ليلة أبي الأولى في السجن إلا الليلة الثانية. لم ينم. استند إلى الحائط. رأسه إلى الأرض. علق السيف فوقه. لم تعد أيامه معدودة فحسب، بل حتى أنفاسه. أدركته النهاية.

فكّر أول ما فكّر أنه لن يرى ابنه الذي لم يولد بعد، أم ستلد زوجته بنتاً؟ كان قد اختار اسم الولد، واختارت هي اسم البنت. لن تحمل المولود يده اللتان كانتا تتلمسانه عبثاً كلما وضعها على بطن أمي الحامل. لن يرصد ملامح طفله أو طفلة التي ستتغير في الشهور الأولى مرّات ومرّات حتى تستقر على سحنة واحدة. لن يعرف لون العينين، ولا صوت الضحك والبكاء. يعرف الاسم فحسب، ولا يعرف شيئاً آخر كأنه جنين مُجهض. ابتسم في أسى. ما أمكر الحياة. فكّر في طفليه اليتيمين؛ أختي وأنا. ما أطعمهما. لو كان في الحبس الانفرادي لبكى بحرارة. تساءل: أيكفينا ما ترك من المال؟ والشركة من يدير شؤونها بعده؟ أخوه هذال؟ أبوه؟ أيديرها كما فعل، أم يفشل ويقودها إلى الإفلاس، أم يبيعون الشركة ويصفونها قبل أن تندهور؟ لو كان يعلم الغيب لوضع أمواله في استثمارات طويلة الأجل كالعقارات.

في أفكاره، خلا المستقبل منه، ما عاد يقف حتى في الحاضر، طوي في الماضي. فكّر في زوجته المريضة. لن يُشفى قلبها المتعب أبداً. المسكينة ترملت في السادسة والعشرين من عمرها. لطالما حدّرها طبيب القلب من الحمل. كانت تحلم على الدوام بأسرة كبيرة. قال الطبيب لأبي إن الحمل التالي قد يكلفها حياتها - لا قدر الله - فعقد العزم على مفاحتها في هذا الشأن حالما تضع حملها فيحدّثها عن الخيارات الجراحية التي تمنع الإنجاب. ستجهش بالبكاء المر. لو تعلم ألمه العظيم حين تبكي ولا يستطيع تهدئتها! لم تكن كثيرة البكاء قبل أن تعيش في مدينة لا تعرف فيها أحداً. اشتكت إلى أمها، فقالت إنها انتزعت هي كذلك من بلدتها البعيدة وسارت وراء زوجها يوم لم تكن ثمة هواتف ولا طائرات. تودّع البنت أهلها فلا تدري أتراهم مرّة أخرى أم يكون ذلك الوداع الأخير. سيقول لأمي بعد أن تذهب عنها آلام الولادة: "عندنا ثلاثة أبناء، ليحفظهم الله ويبارك فيهم. لقد حُرِم البعض من هذه النعمة. إن قلبي يتفتت كلما رأيت أختي هيلة تنظر إلى الأطفال الذين لم تنجبهم". يظنها ستجهش بالبكاء مع ذلك، إذ قلما رأى المكروب في المواساة - مهما كانت صادقة - تخفيفاً عنه. لم يخطر في باله أن ثمة خيارات غير جراحية يمكن أن تمنعها من الإنجاب؛ موته مثلاً.

تذكّر حين كانت عروساً تزوّجها أمس. تذكّر عندئذ تلك الحادثة القديمة حين راح ينظف المسدس فانطلقت رصاصة إلى جدار الصلاة. تذكّر فزعها وشحوبها. تذكّر طمسها لآثار الرصاصة بتغيير موقع التلفزيون وما تبع ذلك من فوضى الكراسي التي تدافعت لتضيق الممر وتدير ظهرها للشباك. لم يدرك أن إعادة ترتيب الأثاث على نحو غير متناسق وامتعضها من ذلك كل صباح هو ما رسّخ ذكرى الرصاصة في عقلها. تذكّر شكواها الدائمة من طنين في الأذن. ظلت تلك الحادثة لغزاً يحيرّه طوال

سنوات حتى قرر أن يتجاهله. لقد فرغ بنفسه حجرة الرصاص. أيقتل المسدس حتى عندما يكون فارغاً؟ لقد كان المسدس في ذلك اليوم بلا ذخيرة. أين كانت تختبئ تلك الرصاصات؟ أخطأته ليلتها وأصابته عندما استقرت في جسد خصمه. أيرتد الرصاص حتى عندما لا يُطلق على الجدار؟ تذكر كم كانت زوجته تمقت السلاح. تذكر - والتذكر جُل ما يفعله الواقفون يوم الحساب - يوم استحلفته ألا يُعلم أبناءها الرماية حين يكبرون، فقال: "المسدسات نعم، أما البنادق فلا. من سيرافقني في رحلات الصيد إذن؟".

تذكر أمه. سيقصم ظهرها. تأوّه. لقد كان طفلها المقرب وإن أنكرت. يعلم وتعلم أخواته ويعلم الجيران كذلك. كانت تناديه من بين أبنائها "جنيني" كأنه الوحيد الذي لم يكبر قط. كم ضايقته في مراهقته تلك الكلمة التي لا تعيده إلى الطفولة فحسب، بل إلى الرحم نفسه. تذكر كم سألت الله أن تموت قبل أبنائها. تحسب أنها إذا تقدمت سيتأخرون. تذكر كم أحبت طفليه وزوجته بدرجة أقل. تذكر يوم رقصت الخماري في زواجه وتمايلت ببطء يمنة ويسرة. تذكر برقعها المطرز بالذهب. تذكر عناقها يوم أقبل بالبشت الأسود. تذكر الصورة الجميلة التي التقطت تلك اللحظة وتمنى لو يراها. لو كان في البيت لقلبه رأساً على عقب بحثاً عنها. تذكر يوم راقصها. تذكر الزغاريد والبهجة والغناء ونام.

فَزَّ كالملدوغ. ظن أنه لن ينام قبل النوم الكبرى. كان نومًا هائئًا قلَّمَا نَعِمَ به خارج السجن. دنا منه السجين الأسود وقَدَّم إليه كأسًا من الماء. ظل يراقبه مذ دخل الزنزانة. مضت ليلتان لا يأكل فيهما ولا يشرب ولا ينام. رأسه وظهره إلى الحائط. يده معقودتان على صدره، وقدماه ممدودتان على الأرض إحداهما فوق الأخرى. لا علامة على حياته سوى صدره الذي يرتفع مع كل نَفَس، والقدم التي يبدها بين الحين والحين، حتى مال رأسه صبيحة اليوم الثالث وهوى جذعه إلى الأرض. قام السجين ليغطيه بلحافه. ظل نائمًا أكثر من عشر ساعات. لم يستيقظ حتى عندما تدافع السجناء لتناول وجبة الغداء. لا الصخب ولا الجوع ولا الحر ولا المثانة ولا الكوايس بمقدورها إيقاظ رجل أثخنه التعب. لا ينام المتعبون ولكن يُغْمَى عليهم.

أبلغه السجين الأسود نقلًا عن أحد العساكر الذين لا يطيقون الملازم أن الرجل لم يمت بعد:

- ما يزال يرقد في العناية المركزة. لقد كذب الملازم القذر لينتقم منك.

لكن أي ما عاد يستمع إليه. التمتعت أول مرّة بارقة أمل في عينيه فشرد بعيدًا. انقلب في طرفة عين من القنوط إلى الرجاء إلى الحلم حتى حُلَّت العصابة عن عينيه، وفُك القيد، وأُغمد السيف، واستدار السيِّف مبتعدًا. انتصبت بقفزة واحدة روحه الجاثية على ركبتيها ونفضت عنها التراب. سيخرج ويعانق زوجته وأطفاله بعفو من الملك الأعلى.

ولما صار السجن وراءه ولاح له بيتنا تذكَّر أن الرجل الذي أطلق عليه الرصاص ما يزال يرقد في العناية المركزة. تساءل: هل يموت؟ حدَّثته نفسه أن الأنجاس لا يموتون حين نتمنى هلاكهم، لكنهم نكاية بنا قد يفعلونها. رُمي في الزنزانة من جديد كما يُرمى الهاربون من السجن بعد القبض عليهم، حتى بات يسمع في كل خطوة قادمة وقع خطوات السيِّف.

كان السجين الأسود ما يزال يتحدَّث إليه، لكن أبي راح يترنح بين الغم والفرج، بين النهاية والنجاة، بين الموت والحياة، كما يفعل -حرفيًا- أبو نعيم في العناية المركزة. كلما اقترب من الموت اقترب أبي، فإذا تراجع ابتعد، كأن تلك الرصاصات الخمس قد سلسلت مصيرها فلن يسلم أو يهلك إلا معًا. هنالك دعا أبي ربه، قال: "ربِّ نَجِّنِي، تعلم أنني ما كنت أنوي قتله، لو أردت لخرجت من بيتي بالمسدس، ربِّ أنت تعلم ما فعل ابنه، لو كان منا من يستحق القتل لكان نعيم، ربِّ نَجِّنِي...".



"الناجي" - رينيه ماغريت، ١٩٥٠

كان عام ١٩٥٠ للبلجيكي رينيه ماغريت عام التحولات، فمن جهة تصاعدت نجاحاته الفنية في الخارج، إذ فتحت له الأرض الأمريكية الموعودة معارضها الفنية، ومن جهة أخرى تصدّعت في الداخل جماعته السورالية وراح ينأى عنه أقرب أصدقائه بول نوجيه ومارسيل مارين. أكان سعدًا طالع ذلك العام أم نحسًا؟ الأمر يعتمد على ميل ماغريت إلى التفاؤل أو التشاؤم، وإن لم يكن من الصعب التكهن إلى أي جانب يميل من لا يثق في الحياة إلى حدّ عدم إنجاب الأطفال.

في ذلك العام، رسم ماغريت لوحة "الناجي" استعدادًا لمعرضه الفني الذي سيقام في ليون. ربما دعا كعادته أصدقاءه الشعراء والكتّاب ليعرض عليهم لوحته الجديدة التي لم يكن لها اسم بعد، فاللوحة تولد مثلنا بلا اسم. كان قد رسم هذه المرّة بنقدية يتقاطر منها الدم. لا بد أن المدعويين تأملوها طويلاً قبل أن يبتدعوا لها العناوين التي كثيرًا ما كان يأخذ بها ماغريت، لكن لو طرح عليه أحدهم عنوانًا من قبيل "القاتل" أو "نزيف" لتجاهله تمامًا.

لئن كان ماغريت يضع الأشياء في غير مواضعها ويسمّيها بغير أسمائها، كأن يرسم كأسًا فوق مظلة أو يرسم حذاء ويسمّيه قمرًا، فيزعزع بذلك الأشياء ومسمياتها، فإن لوحة "الناجي" تحديدًا ما كان لها أن تحمل غير ذلك الاسم. فالعنوان كما يرى ماغريت لا يجب أن يكون دليلًا أو مرشدًا يزودنا مثلًا باسم المدينة أو المرأة التي في اللوحة، كما أنه ليس على اللوحة أن تكون رسمًا توضيحيًا للعنوان، وذلك لأن العلاقة بين العنوان واللوحة علاقة شعرية، إذ تلتقط وحسب بعض خصائص الرسمة التي لا نعيها عادةً، إنها ندرتها بالغريزة. كان ماغريت يلح على ضرورة أن يتسق العنوان مع أحاسيسنا الحية حينها نقف قبالة اللوحة.

يرى لويس سكوتنير وهو أحد أفراد الجماعة السورالية أن العنوان عند ماغريت لا يأتي من إدراكه التصويري لما يرسم، إنما يأتي من الفكرة أو العاطفة التي دفعت يده إلى الرسم. على أن البعض يخالف ذلك الرأي، إذ يرى في عناوين ماغريت ميلًا إلى الغموض وربما التضليل.

لطالما رأيت في عنوان "الناجي" امتدادًا للوحة نفسها، فكأن ماغريت لم يفرغ من الرسم حتى بعد انتهاء اللوحة، بل ظل يتابع الرسم خارجها إلى أن عثر على هذا العنوان. من ينظر إلى اللوحة لن تقع عيناه على أيّ من أساليب ماغريت الشهيرة، فلا أجسام تطفو في الهواء أو تتحجّر أو تتداخل، وليس هناك تناسخ للعناصر أو مضاعفة للأحجام أو رسمٌ داخل الرسم، ولا إطارات خشبية أو ذهبية تحيط بعناصر اللوحة، وقد كان يوظفها ليلفت الانتباه لعلمه أن الإطار يحبس العين أكثر من الصورة. تكاد لوحة "الناجي" بواقعيّتها المفرطة تخالف ما نألفه عن ماغريت، ولولا عنوانها وبقعة الدم لربما داخلنا الشك في نسبتها إليه ولو كان عليها توقيع، فالأسلوب هو التوقيع لا تلك الحروف الصغيرة أسفل

اللوحة.

والعنوان بالطبع لا يقتصر على الناجي وحده، إذ وراء كل ناجٍ جانٍ بالضرورة. لقد أخفاه ماغريت خلف الناجي، كأن ولعه بالإخفاء لا يقتصر على ما يرسمه في اللوحات حين يغطي الوجه بتفاحة أو حمامة، بل يتجاوزه إلى العناوين. لو كان العنوان هو "الجانى" لكانت اللوحة أقرب إلى تلك الصور الجنائية التي تُلتقط للمجرمين جانبياً عند القبض عليهم. ما كان ماغريت ليفعل ذلك. للجاني قصة واحدة، وللناجي قصتان وإن لم يحن الوقت لروايتها بعدُ. فالناجي ما يزال حديث عهد بخطر، وليبقى كذلك عليه أن يواصل النجاة في كل لحظة، على عكس الجاني الذي سيظل جانياً أبد الدهر. إن من ينظر ملياً إلى هذه اللوحة ولا ينظر إلى العنوان لا يرى اللوحة كاملة.

لكن ما الذي نراه حينما ننظر إلى لوحة "الناجي"؟

بندقية. ربما تكون بندقية صيد. تقف في البيت وقد سال منها الدم حتى لَطَّخَ الأرضية الخشبية. رأس البندقية يستند إلى الجدار. يكسو النصف الأعلى من الجدار ورق حائط برتقالي يزيّنه ورد ناعم يتناثر في أناة ودعة. أما النصف الأسفل فيكسوه الخشب على الطراز الإنجليزي الذي ابتدع أول الأمر لحماية الجدران من البلل، ثم صار يُستخدم فيما بعد للزينة. إطار عريض من الخشب فيه صف من المستطيلات البارزة والغائرة. وعلى الأرض بقعة دم لم يمض عليها وقت طويل.

فإذا أعدنا النظر إلى اللوحة رأينا الثلث الأعلى منها واعدًا مثل البدايات في القصص والحياة نفسها، حتى إن اللوحة يمكنها مثلاً أن تكون عن الذهاب إلى الصيد، إذ لم يظهر الدم بعد، وما زال من الممكن أن يحل أسفل اللوحة مكان البقعة القانية كلب صيد. لكن هذا الاحتمال يتبدد مع ظهور أول نقطة دم على البندقية، تلك النقطة الحمراء الصغيرة التي تقوم بدور العقدة في القصة. تسيل بعدها خيوط الدم على جذع البندقية حتى يتلَطَّخ كعنها ويتقاطر الدم على الأرضية الخشبية. لو كان أحدهم يحمل هذه البندقية لاستقرت بقعة الدم في تجويف كتفه. لقد صُنِعَ كعب البندقية ليماً هذا التجويف. يلاصق الخد الأيمن جذع البندقية لتثبيت العين عند التصويب أولاً ولإراحة الرقبة ثانياً. تتسارع نبضات القلب، لكن لا بد من كتم الأنفاس عند إطلاق الرصاص وإلا أُحطِئ الهدف، لأن الزفير يخفض كعب البندقية ويرفع الماسورة فتنتقل الرصاصة أعلى قليلاً مما يجب، والشهيق يفعل العكس. على أن من يُطلق الرصاص لا بد أن يكتم أنفاساً طويلة بعد ذلك.

جفَّت بقعة الدم في اللوحة حتى إننا لو حاولنا لمسها لما تلَطَّخت أصابعنا بالدم ما لم نبللها قليلاً باللعباب. من الواضح أن هذا الدم لم يُسْفَك قبل دقائق، كما لم يُسْفَك قطعاً منذ ليالٍ بعيدة. لقد امتصته ألواح الأرض الخشبية حتى فقد كثافته وحرته، ولو كانت الأرضية من معدن صلب لظل الدم يمتقع فوقها ويتخثر حتى يغدو بفعل الأكسدة أقرب إلى اللون البني. على أن عوامل أخرى مثل تيار الهواء ولزوجة الدم وكثافته لا بد أن تؤخذ في الحسبان لتقدير الوقت الذي مضى على تلك البقعة، ولو كان لي أن أحمّن من المنظر فحسب -ولا أملك غير ذلك- لقلت أريقَ هذا الدم قبل يوم.

شكلياً، يمكن القول -بلغة أهل الرسم- إن تكوين العمل الفني ثلث إلى ثلثين وبؤرته في المنتصف. تنقاد العين نحو المركز فلا تشغلها خطوط تشي بحركة من أي نوع. يتألف العمل من ثلاثة عناصر: بندقية، جدار، أرضية. وإذا احتسبنا بقعة الدم صارت أربعة. لا شك أن العنصر الأساسي البارز في العمل هو البندقية، غير أن بقعة الدم على صغرها لها الوزن نفسه من الأهمية. لا يمكن التقليل بالطبع من قدرة البندقية على ابتكار مذبحة، لكنها تظل في حيز التهديد القائم، وقد تقبع طويلاً خلف زجاج

عرض أنيق أو إلى الأبد ما لم تُطلق الرصاص وتسفك الدم. أما لوئيًا، فتطغى درجات الألوان الترابية الدافئة شديدة التقارب وقد خُففت على الأرجح باللون الأبيض حتى صار لها ذلك الطابع الباستيلي الباهت. أسلوب الرسم أقرب إلى الواقعي الكلاسيكي. يتجلى ذلك في الموضوع، والألوان، والعناية بالضوء والظل والتفاصيل الدقيقة لسطوح العناصر وملامسها. عمد ماغريت أيضًا إلى التضاد في الشكل والجوهر ليصدم العين والفؤاد: بيت-سلاح، أمان-فرع، ورد-دم، حياة-موت.

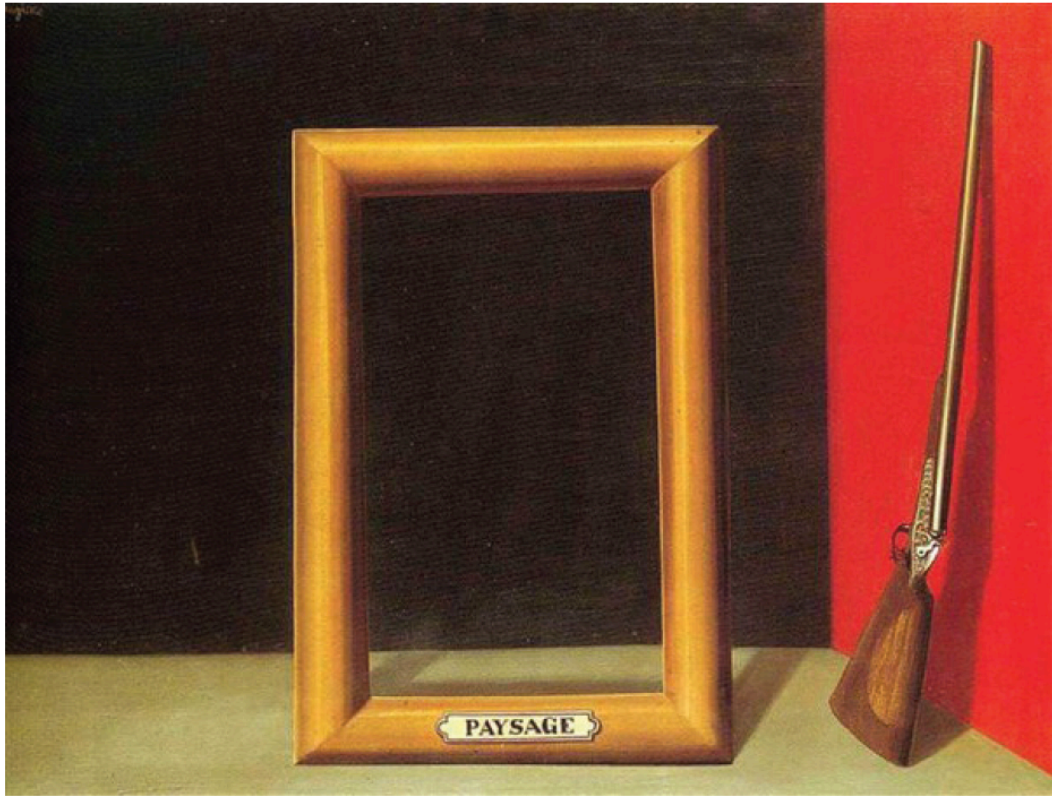
كان ماغريت يشكك في جدوى تفكيك أعماله بغرض تحليلها، بل لقد زعم في أحد الحوارات أن أعماله ستبقى صالحة ما لم يُضطر الناس إلى تحليلها. فالناس يميلون عادةً إلى تحليل ما لا يترك فيهم أثرًا. والحب الذي يمنطقه المرء ويحلله ليس حبًا على حدِّ قوله، وإنما كاريكاتير للحب. يريد ماغريت للوحاته أن تُقبل عفواً كما هي من غير وسيط أو مترجم، ويظن في الوقت نفسه أن من لا يرى العالم لغزاً لن يكتشف ما تريد لוחاته أن تظهره.

قلماً ظهرت البندقية في أعمال ماغريت، ولو أحصيناها سريعاً لما تجاوزت بضع مرّات. تُحمل في الغالب على كتف صياد (مرّة)، أو جندي في نوبة حراسة (مرّتان)، أو فصيل عسكري (مرّة)، أو تستند وحيدةً إلى الجدار (مرّتان). في العموم، قليلاً ما تظهر الأسلحة بمختلف أنواعها في لוחاته. ليست كالغيوم، أو الستائر، أو الأجراس، أو تلك الأشياء "الماغريتيّة" المألوفة التي ارتبطت به ذهنياً حتى كادت تكون توقيعها الثاني.

لكن بندقية "الناجي" تذكّرني ببندقية قديمة رُسمت قبلها بعشرين سنة في اللوحة التي أسماها ماغريت "مسرات الطبيعة". تقف البندقية إلى جانب إطار خشبي من المفترض أن يحوي منظرًا طبيعيًا كما توحى الكلمة المكتوبة على الإطار بالفرنسية "PAYSAGE" (منظر طبيعي). يمكن قراءة اللوحة بالربط بين حضور البندقية وغياب الطبيعة. وإذا كان ماغريت الشاب آنذاك قد أُنذرتنا مغبة العدوان على الطبيعة، فإن ماغريت الكهل -وقد عايش حربين عالميتين- رأى أن تلك البندقية ما كانت تهدد الطبيعة وحدها، وهكذا أزاح عناصر لوحته القديمة تدريجيًا إلى اليسار حتى خرج منها الإطار واستفردت البندقية بالمشهد في لوحة "الناجي". أم كان ذلك الإطار يخص البندقية وقد خرجت عنه خروج السلاح من الجراب؟ ولما صادف ذلك خروجنا أيضًا عن العقل الذي هو جرابنا كان لا بد من الدم.

إن من ينظر إلى البندقية في لوحة "الناجي" يجدها تقف في ثبات من ليس في حاجة إلى الاستناد إلى الجدار، مع أن الدم قد سال على ثلثها في منظر غير مألوف لبندقية بقدر ما هو مألوف في الأسلحة البدائية كالسيوف والنصال. لو كان هذا دمها -ولا يمكن استبعاد ذلك تمامًا فليس غريبًا أن يؤنس ماغريت الجمادات- فلا بد أن البندقية تشعر بالدوار وربما تسقط بعد قليل في غيبوبة إثر فقدانها كثيرًا من الدم. بيد أن البندقية لا تقف هنا طلبًا للراحة أو حتى لتلتقط أنفاسها مع أنها أنجزت للتوّ عملاً ثقيلاً، بل تقف في زهو تماثيل الميادين. لو سقطت على الأرض لذهب نصف الذعر من اللوحة، إذ يعني

ذلك نهاية المأساة مهما بلغت فداحتها، لكن وقوفها المتغرس يضاعف من خطرها، وهو خطر عظيم
بحد ذاته حتى إننا لا ندري أيتعاضم حينما تقع البندقية في يد ماهرة تتقن التصويب أم حين تحملها يد
خرقاء؟ ثم إنها في البيت وما البيت حين يخلو من الأمان؟ لو كانت على الأقل تستند إلى حائط ثكنة أو
جذع شجرة لربما كان تأثيرها أخف وطأة على النفس.



"مسرّات الطبيعة" - رينيه ماغريت، ١٩٣٠

لمن هذه البندقية؟ من الذي جاء بها إلى البيت؟ لم تعد هذه البندقية قطعاً من رحلة صيد مهما بلغ بنا حسن الظن. هل اقتحمت قهراً دفة هذا البيت، أم أنها في الأصل بندقية صاحب البيت؟ تراه استشعر الخطر الذي كان يهدده فحازها ليدافع عن نفسه عندما تحين اللحظة - "وفي الشرّ نجاتاً حين لا ينجيك إحساناً" كما يقول شاعر قديم - أم تعرّض صاحب البيت للهجوم من قبل وقد كان ممن يتجنّب اقتناء السلاح على أمل أن يتجنّب السلاح بدوره؟ أو لعل هذه البندقية التي تبدو كأنها من طراز جيفير ١٨٨٨ قد عادت للتوّ من الحرب وقد رسمها ماغريت بعدما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها. حملها الجندي عائداً إلى البيت بعد ست سنوات دامية وحمل معها دماء القتلى. ألا يكون الجندي نفسه قد تحوّل إلى آلة قتل؟ في هذه الحالة ستكون اللوحة أقرب إلى بورترية شخصي. أم تجنّب ذلك الجندي الحرب بخوضها ضد نفسه حين أطلق الرصاص على ساقه أو ذراعه ليُغفى من الخدمة العسكرية؟ أم الناجي هو السلاح الذي ما انفك يهدد الوجود الإنساني؟ فالدم على البندقية لا يلطّخ إلا تلك الأجزاء التي تتماس مع حاملها. كان مناهضو السلاح في أمريكا - البلد الذي يتصدّر بنسبة كبيرة بلدان العالم في اقتناء السلاح ويصادف أن تكون هذه اللوحة في أحد متاحفه - يحملون نسخاً من لوحة "الناجي" في لافتاتهم وشعاراتهم. ألا يكون الناجي هو تاجر السلاح وصانع الحروب الذي تبور تجارته في زمن السلم، أم لم ينجُ أحد ولم يعد سوى الخراب والدمار؟ فهذه البندقية ليست بندقية فحسب، إنما هي كناية عن الحرب، وكذلك الخيط الأسود على الجدار ليس ظلها، ولكنه الموت وقد حاق بالأرض قاطبةً لا البيت وحده.

على أن سؤال الناجي في لوحة ماغريت لم يشغلني يوماً، إذ لم تكن هذه اللوحة من أعماله المفضّلة عندي، بل لعلي ما أحببتها أبداً لولا بندقيتها التي طالما ذكّرتني ببندقية أبي، وإن خلّت من بقعة الدم. كثيراً ما يخاطر على بالي أن لو كان أبي حياً لربما تمكّن من تحديد هوية الناجي في العمل، إذ كان هو نفسه قد وقف على هذه اللوحة لا من الخارج كما أفعل الآن، بل من الداخل. إن ما يشغلني في واقع الأمر سؤال الناجي في هذه القصة.

أيقون نعير؟ لقد جرّ المشؤوم - على ضالّته - الولايات على الجميع. لو أن أحداً يستحق القتل لكان هو. ظل ينجو بأعجوبة مرّة تلو مرّة. نجا أولاً من الضرب الوحشي. نجا في المرّة الثانية حين تقدّم نحوه أبي بالمسدس فظن أنها النهاية. حاول أن يهرب فلم يستطع إلا أن يزحف على بطنه قليلاً ثم توقف وتغوّط من الخوف. كان أبي قد جُن حينذاك وعزم على قتله لولا وقوف زيد للدفاع بجسده عنه لتقف المأساة عند ذلك الحد. نجا نعير في المرّة الثالثة من حُكم بالقتل. حُكِم عليه بالسجن سنة واحدة فحسب! هل تزوّج بعدها؟ يظن الناس هنا أن الزواج يعيد المرء إلى رشده. ربما صار أباً يخاف على أطفاله من الخروج للعب في الشارع، فهناك مُحتلٌّ على الدوام يسوق الأطفال إلى قضيبه.

أم يكون أبوه هو الناجي؟ لقد نجا من خمس رصاصات، حتى إبليس نفسه قد لا ينجو منها. لم تكن الإصابات قاتلة - باستثناء إصابة الفخذ - لكن النزيف الحاد يقتل. لو كان جدِّي رشيد يومها في القرية لخرج إليه بالرشاش ورش الزقاق بالدم طويلاً وعرضاً. أراد له الله أن يكون في الشام وقت الحادثة حتى لا تكون مذبحة. لقد نجا بطريقة ما هو الآخر. لم يفارق جدِّي رشيد ابنه سعدون بعد ذلك، إذ راح يصحبه أينما ذهب حتى آخر يوم في حياته. كان من الغريب رؤية ولد صغير يجالس كبار السن. ظل سعدون يقعد على يسار جدِّي في المجالس والأعراس والمآتم، بل حتى على كراسي المستشفى.

كان سعدون انطوائياً قليل الكلام. لم أعرف طوال حياتي ولداً أشيب غيره. سافر إلى أمريكا للدراسة ولم يعد إلا للدفن والدته، ثم غادر في الليلة نفسها ولم نره بعد ذلك. بحثت عنه يوماً في حسابات التواصل الاجتماعي حتى عثرت على حسابه في الفيسبوك. لم أجد في ملفه الشخصي غير قليل من المعلومات والصور، فالحساب غير نشط منذ سنوات. يعمل سعدون مهندس بترول في شركة شيفرون بهيوستن. تزوج امرأة أجنبية. لا أطفال في خانة أفراد العائلة ولا في صورهما التي التُقطت غالباً في مطاعم أو متاحف. أتساءل: هل ذهبا إلى متحف مينيل بهيوستن حيث علقت لوحة "الناجي" لماغريت؟ هل مسّت سعدون قشعريرة خفية عندما مر بجانبها؟

لو وقف أبي قبالة اللوحة لداخله في الغالب شعور يشبه الديجافو. كان قد وُلد في العام الذي رسم فيه ماغريت لوحة الناجي. أتذكر أنني حينما قرأت كتاب البروفيسور أليكس دانشف عن حياة ماغريت وقفت على مصادفة أخرى، إذ كان البلجيكي قد أصيب بسرطان البنكرياس كما سيصاب أبي. ربما فات على المنجّمين قراءة الطالع بالفن التشكيلي. قرأت أيضاً أن ماغريت تساءل عشية موته هل سينجو؟ فخطر في بالي أن أبي قد سأل الله هذا السؤال بعدما أُدخل أبو نعير في العناية المركزة.

أعتقد أن أبي لم يُرد قتل الرجل! لو أراد ذلك لسدّد على الرأس أو القلب أو الرئة. لو كانت تلك نيّته أصلاً لخرج بالمسدس من بيته في الدمام لا بالمشعب. لكنه أطلق خمس رصاصات كأنه يقف في نادي رماية بالنظارة الواقية وساعات الأذن ويصوّب بهدوء على هدف ورقي. يصعب الدفاع عنه أمام القاضي. لقد شرع في القتل من وجهة النظر القانونية، والشروع في القتل يعني أنه قد بدأ بتنفيذ فعل يزهق النفس، لكن النتيجة لم تتحقق. تنظر المحكمة عند تقدير عقوبة الشروع في القتل إلى عوامل متعددة، مثل: مدى قرب الجريمة من الاكتمال، ونوع الأداة المستخدمة، والنية الواضحة، ودرجة الإصابة، وكل ما سبق ليس في صالح أبي. تأخذ المحكمة في الحسبان دوافع الجاني أيضاً، ومع ذلك فجريمة الشروع في القتل هنا مكتملة الأركان.

لا شك أن أبي قد بالغ في تقدير مهارته في التصويب، إذ لا يتجاوز الفرق أحياناً بين الإصابة القاتلة وغير القاتلة أكثر من ملليمترات. ألم تكن إصابة الفخذ قاتلة لولا أن تداركها الأطباء قبل فوات الأوان؟ ظن أنه سيتمالك نفسه الغاضبة حين يخرج بالمسدس، وتلك مبالغة فادحة أخرى.

أراد أبي في الحقيقة تأديب الابن لا الأب، وإبقاء الأمر سرًّا، ومن ثمَّ العودة إلى البيت. ولم يتحقق شيء مما أراد. من البديهي أن القانون يستطيع معاقبة نعيم، لكن فعلته ستبقى عندئذ على كل لسان. ثم إن من يتوجه للقانون مطالبًا بإنصافه من إهانة تعرَّض لها شرفه يفقد بذلك شرفه على حدِّ قول مونتيني.

نجا أبي مع ذلك، إذ تساهل القاضي - كما تساهل مع نعيم - فلم يحكم عليه بأكثر من سنة وأربعة أشهر، حتى إن هيئة التمييز لمست ذلك التساهل فلم تصادق على الحكم القضائي قبل أن تضيف إليه سنة أخرى. نجا من بطش الملازم حين نُقل من سجن القفيف إلى سجن الدمام بعلاقات جدِّي رشيد ونفوذ. نجا النجاة الكبرى حين همَّ بقتل نعيم ولم يفعل. ظن أنه خسر كل شيء بعدما أطلق الرصاص. لقد تحطمت حياته ونعير هو الذي حطَّماها. فعل فعلته أمس، ودفعه اليوم إلى القتل، وغدًا يسوقه إلى ساحة القصاص. هنالك جُن أبي من الغضب وتقدَّم نحوه بالمسدس لولا تدخل زيد.

لا بد أن أبي قد فكَّر بالحادثة طوال محكوميته، ولم يتوقف عن التفكير حتى بعد خروجه من السجن. هل ندم على ما فعل وتمنى لو لم يطلق الرصاص؟ أزعم أنه ما كان ليردد في إطلاق النار مرَّة ثانية وثالثة لو عاد به القدر من جديد. أحسبه ممن لا يتراجع أبدًا إذا رأى أنه على حق. ما كان ليردعه رادع حتى الموت نفسه. إذا كان الآباء يتباهون بمعرفتهم لأبنائهم حق المعرفة، فإن الأبناء يمكنهم أن يقولوا الأمر نفسه عن آبائهم. لو تمنى أبي - وما نفع التمني أحدًا - لتمنى من كل قلبه لو أن نعيمًا لم يقدم على فعلته الخسيسية تلك. أما وقد فعلها فكل ما حدث بعد ذلك كان لا بد من حدوثه.

لقد نجا أبي في النهاية، ونجونا نحن أبناءه الثلاثة أيضًا من اليتم، ومن أن نُوصم بأبناء القاتل. ما أكثر الناجين في هذه الحادثة، مع أن الرصاص لم يُطلق إلا على شخص واحد!

تهريب الأب

لخطو أمي حفيفٌ يشبه حفيف الشجر مذ صار نصفها الأيسر يجرُّ نصفها الأيمن جرَّ الحصان لعربة تعرقها الأحجار. ما عادت أمي ترفع قدمها اليمنى بعد الجلطة الأخيرة إلا قليلاً عن بلاط البورسلان ليعلو حفيفها فيشي بقدمها إلى الصالة أو ذهابها إلى المطبخ. إذا قلنا اجلسي يا أمي سنأتيك بما تريدن، تقول لست عاجزةً بعدُ. سرعان ما تعود إلى سجّادتها الخضراء التي تشبه سجّاد الروضة الشريفة. تقضي جُل يومها هناك تُصلي وتقرأ القرآن وتسبح فلا نسمع غير صفيرها الخافت، صفير حرف السين الذي يهمس همس الأسرار. خالاتي يقلن إنها لم تكن كذلك قبل الحادثة. إذا كان الحفيف هو صوت حركتها فصفير السين هو صوت سكونها. لو كنت أعمى لما شقَّ عليَّ معرفة ما تفعله أمي.

عندما أجلس بجانبها أسمع صوت صمامها المعدني يدق مع كل نبضة عسى ألا يتوقف أبداً. ينفتح وينغلق ليتدفق الدم داخل حجرات قلبها وخارجها وفي عروقي. لطالما كانت أمي مريضة. أتذكّرها في صباي تعصب رأسها من شدة الصداع. يتهاوى جسدها مرّة في كل شهر أو شهرين فيحملها أبي إلى الطوارئ لتقيم ليلة هناك ثم تخرج في الصباح الباكر فتعاود حياتها كأن شيئاً لم يكن.

تقف أمام الفرن فتذوق مرق اللحم، وتغمض عينها اليسرى لتقيس درجة الملوحة فترش على المرق بعض الملح أو تزيد قليلاً من الماء إذا كان الملح زائداً. تُقعي عند قدميها أينما وقفت سلة الغسيل فتحملها إلى الغسّالة وتأمّرن بصوتها العذب القديم في أثناء ذلك أن نكفَّ عن الشجار، فنحلف -أنا وأخي- بصوت واحد: "هو الذي بدأ". تعرف من تاريخنا العريق أن من يشتكي إليها أولاً على الأرجح هو الظالم. كانت تُذكّرنا في كل خصام أن ليس لنا في الدنيا غير بعضنا البعض. ثم تمضي إلى المجلس لترتبه وتبخيره وتدعو في طريقها أختي إلى تمشيط شعرها وتدلهما على مفقوداتها التي ما كفت تبحث عنها: "تجدينها في الرف العلوي نفسه لو فتحتِ عينيكِ قليلاً". لولا الأمهات لخلت البيوت من متعلقاتنا الشخصية فلم يبقَ غير الأثاث. ثم تعود أمي إلى المطبخ لترى هل نضج اللحم أم لم ينضج بعدُ.

ما كنا لتندكّر أنها مريضة لولا التعب الذي كان يعترها بين الحين والحين حتى ما عادت تفتح لنا الباب بعد أن نعود من المدرسة. صار أبي يطبخ لنا الغداء أكثر من مرّة في الأسبوع. كان طباًخاً ماهراً وإن لم يعرف مثل أمي ما يشتهي كل واحد منا. كنا نسأل: "أين أمي؟". ثم صرنا نذهب بحقائبنا المدرسية مباشرةً إلى غرفة نومها فتبتسم لنا في إعياء. "هل أنت بخير؟". تومئ برأسها: "نعم"، لكن إيمايتها الواهنة وابتسامتها الشاحبة تقولان عكس ذلك. ثم كانت الجلطة. ذهب صوتها فما عادت تتحدّث إلا نادراً. قد لا تتجاوز في اليوم الواحد عشرين كلمة، ثم لا نسمع بعدها إلا صوت الحفيف وصفير السين ودقّات الصمام المعدني.

إذا دقت الساعة السادسة مساء كل يوم هاتفتها لأذكرها بحبوب الوارفارين. قد تسبقتني أختي الكبيرة فتناولها كأسًا من الماء وجرعتها اليومية. ثم يتفقد أخي الأصغر بعد ذلك علبة تنظيم أقراص الدواء الأسبوعية ليطمئن بنفسه من خلوها من جرعة الوارفارين اليومية. نخشى أن تنسى مضاد التجلط. حتى الجارات حين يزرنها يسألنها: "ألم يحن الوقت لتناول حبوب السيولة؟". ليس هذا دواءها الوحيد. تتناول أُمِّي أكثر من عشرة أقراص يوميًا، لكن الوارفارين هو ما يقلل من حدوث الجلطات والنوبات والسكتات الدماغية. نخشى من جلطة أخرى لا نعود نسمع بعدها حتى الحفيف.

تبدأ أُمِّي عادةً بتناول الحبوب الأسطوانية فالحبوب الدائرية. دواء الكولسترول وتنظيم ضربات القلب والضغط والسكر والمعدة وأدوية أخرى. أحاول عبثًا أن أدفع عنها خجل الشيخوخة أو أدفع عني غصة الأبناء فأذكرها بجارتنا القديمة أم أحمد؛ كانت تمتنع عن تناول الأدوية في نهاية الأسبوع: "أرجوك لا تفعلني مثلها يا أُمِّي"، فتضحك قليلًا وتسعل كثيرًا. لا يفصل ضحكها اليوم عن السعال. في الشيخوخة يدفع الجسدُ الثمنَ فورًا، أما في الشباب فيدفع بالدين المؤجل، وكثيرًا ما يماطل فلا يدفع أبدًا.

سألتها ذات يوم عن حادثة أبي. كان سكوتها أطول من كلامها. كلما سألتها سكتت وقالت: "لا أتذكر". "متى علمتِ بالحادثة يا أُمِّي أول مرة؟"، "ماذا كان شعوركِ حال سماعكِ الخبر؟"، "كم مرّة زُرتِ أبي في السجن؟"، لا تتذكر. بدا أنها تتألم، مرّة من السؤال، ومرّة من الجواب سواء تذكّرت أم لا. حدّثتني ذات يوم عن ذهابنا يوم العيد إلى الاستوديو لتلتقط صورتنا الجماعية وترسلها إلى أبي في السجن. الحقيقة أن أُمِّي صارت تنسى كثيرًا بعد الجلطة حتى خشينا أنها أصيبت بالزهايمر المبكر. طمأنتنا الفحوصات وقتها أنها لا تشكو من شيء غير الزمن. ما كنت لأوجعها أكثر. من حقها أن تعتصم بالصمت أو بالنسيان.

لم تكتفِ الجلطة بما فعلته بأُمِّي، بل راحت تطمس ذكرياتنا معها يومًا تلو يوم فلا نتذكرها إلا بعد الجلطة، أما تلك المرأة الشابة التي كانت تتحدّث وتضحك كثيرًا فما عدنا نتذكرها إلا قليلًا.

وجدتُ، بعد وفاة أبي، في الخزانة الرمادية رسالة من أمي كانت قد بعثتها إليه في السجن. عرفتُ في الرسالة خطّها الديواني الجميل قبل الجلطة. كم جاهدت أمي لتعاود الكتابة من جديد فلم تُطعها أناملها التي تخشبت. لم تحاول الكتابة بيدها اليسرى السليمة قَطُّ، لا لأنها ستعيدها خمسين سنة إلى الوراء يوم تعلّمت الكتابة أول مرّة، بل لأن ذلك يعني فقدانها الأمل بعودة نصفها الأيمن إلى طبيعته، وهو ما ستسلّم به لاحقًا.

قرأتُ بضع كلمات من رسالتها إلى أبي في السجن. لم أجرؤ على قراءة المزيد. أدركت في الحال أن ليس من حقي ذلك. رأيتُ أني أمشي على أطراف أصابعي حتى أصل إلى غرفة والديّ فأميل رأسي حتى تلتصق أذني بالباب لأتنصت عليها وهما يتناجيان. لم أفعلها غير مرّة واحدة في الحادية عشرة من عمري وكان عقابي أبدئيًا. كنت قد ألححت على أمي لتقنع أبي حالما يعود إلى البيت أن يأخذنا إلى ملاهي شاطئ نصف القمر. ولما عاد أبي تبعته أمي فدخلنا إلى غرفتهما وأغلقا الباب. لم أصبر ورحت وراءهما أتصت. سمعت أمي تسأل في قلق: "ماذا قال لك الطبيب؟"، وسمعت أبي يجيبها بنبرة باردة قاتلة: "لقد عاد السرطان مرّة أخرى".

أتذكّر أننا رحنا إلى الملاهي، وأتذكّر أنني تقيأت قبل الدخول عند شباك التذاكر. لم أَلعب يومها. جلست على الكراسي الخشبية الطويلة أراقب أبي المريض بالسرطان يلعب مع أختي وأخي، ويلتفت نحوي من بعيد ثم يلوّح بيده ضاحكًا.

في الحقيقة، خفت من قراءة رسالة أمي فأحرقتها في الحال. ومع ذلك، بقيت تلك الكلمات التي قرأتها في رأسي حتى اليوم لم تمسّها النار. "لقد رأيتُ ذلك..."، كانت تلك كلماتها. ماذا رأت أمي؟ وأين؟ في المنام أم في الصحو؟ أم تراها تقصد تلك الرصاصة القديمة التي انطلقت إلى جدار الصالة وارتدت فوق كتف أبي؟ لن أعرف أبدًا. أميل مؤخرًا إلى الاعتقاد بأن مصائرنا تنكشف في لحظة مبكرة عبر فرجة صغيرة من الغيب. يصادف دومًا أن نتحوّل عنها في تلك اللحظة إلى مشاهدة أمر آخر فلا نتذكّرها إلا بعد حدوثها. لماذا احتفظ أبي بهذه الرسالة تحديداً من رسائل السجن؟ ثم أين ذهبت رسائله إلى أمي؟ هل كانت تعاود قراءتها كل ليلة حتى تكاد تسمع صوت أبي فتغالب النشيج ويغلبها؟ هل أحرقت الرسائل عندما خرج أبي من السجن؟ لن أعرف أبدًا.

لكن ما يزال عندي دفتر السجن الأزرق. ظننت أن أبي في بادئ الأمر قد دوّن يومياته في ذلك الدفتر، وعندما تصفّحته وجدت كثيرًا من الأشعار. لقد تفرّغ أبي في زنزانه لكتابة الشعر النبطي فدوّن عشرات القصائد الغزلية. تبدو في الغالب غير مكتملة، إذ ظل يكتب على هوامشها كثيرًا من التصحيحات. لو حذف من كل قصيدة مطلعها الغرامي لتحوّلت إلى مناجاة وابتهاال. ثمة قصيدة

واحدة فحسب يذكر فيها من دون موارد ليالي السجن البطيئة، ويسأل الله الفرج. كان قد دَوَّن كثيرًا من أبيات لبيد بن ربيعة هنا وهناك. "وما عاتب الحرُّ الكريمُ كنفسه". لم أعثر على بيت واحد للمتنبّي! لطالما كان شاعره المفضّل. بعض الصفحات بيضاء. كتب في أكثر من صفحة سورة الضحى بخط رقعة جميل كأنه يتلوها، وضغط بقلمه الأسود في كل مرّة عند كتابة هذه الآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. كتب بعض الكلمات الإنجليزية ومعانيها. هل كان في الزنزانة قاموس ثنائي اللغة، أو كُتِبَ يعدّ بتعليم اللغة الإنجليزية في خمسة أيام؟ الكلمات بالترتيب: "عاطفة، لهو، ربيع، شعر، شاعر، أصفاد، حكم قضائي". لا تواريخ في دفتره إلا تاريخ دخول السجن وتاريخ الخروج. ثمة أسماء لم أسمع بها من قبل، ربما كانوا عملاء شركته. كتب إلى جانب أسمائهم مبالغ بعشرات الآلاف. تبدو مثل قيود محاسبية لسجل حسابات سرّي. كتب أيضًا في إحدى الصفحات غرفة ٢١٩. أهو رقم الزنزانة، أم رقم غرفة في فندق؟ كان قد كتب اسم أخيه الأكبر هذال في الصفحة الأخيرة. ما الرابط بين هذه الأرقام والأسماء والقصائد والآيات والجمل الناقصة؟ تبدو حينًا إذا جمعتها مثل رموز أو شفرات سرّيّة، وتبدو في أحيان كثيرة أشياء لا معنى لها. هناك صفحة واحدة كتب فيها أبي قصة الحادثة ثم نزعها فلم يُبق غير السطور الأولى. تبدأ القصة بخروج سعدون للعب وحيدًا وتنقطع الورقة.

وجدتُ في دفتر السجن اسم السجين الأسود الذي هبَّ أبي للدفاع عنه ليلة دخوله إلى السجن، وكذلك اسم الملازم الذي تعارك معه. أما السجين الأسود فسيغدو صديقًا للعائلة وسندعوه العم حسن، ولن يفتأ يحدّثني عن ذلك العراك. كانت عيناه تلتمعان في كل مرّة كأنه يعود إلى الزنزانة فيشهد العراك من جديد، ثم يتوقف في لحظة ما عن الحديث ويردد بحسرة: "لن تعرف أباك أبدًا كما عرفته".

عرفت الملازم أيضًا، وقد صار عميدًا، يوم رافقت أبي لمتابعة معاملة حكومية في شرطة القطيف بعد أكثر من عشر سنوات من وقوع الحادثة. نهض العميد لمصافحة أبي ما إن تعرّف عليه، ولم يتأخر في التوقيع على الأوراق. لم ينسَ كلاهما ما حدث، لكنه احترام الأنداد على الرغم من بُغضهما أو مرور الزمن. قال أبي حين خرجنا من مركز الشرطة في سخرية: "من يعرفك صغيرًا يزدرىك كبيرًا"، ثم قصّ عليّ ما وقع بينهما في السجن، وإن اختصر القصة فلم يُطل في سردها مثلما كان يفعل العم حسن.

أقلّب صفحات الدفتر الأزرق وأنتبه إلى أن دفترًا من مئة صفحة لا يكفي رجلًا حُكِمَ عليه بالسجن لسنتين وأربعة أشهر. لم يكن ذلك دفتره الوحيد قطعًا. أين ذهبت بقية الدفاتر؟ هل أحرقها أبي كما فعلت أُمّي بالرسائل؟ هل تعاهدا معًا على حرق الماضي والبدء من جديد؟ أنسيَ أبي الدفتر أم لم يلتزم تمامًا بذلك العهد؟

كان ذلك الدفتر الأزرق نصيبي من الميراث. مات أبي وفي حسابه البنكي ثلاثون ألف ريال هي مبلغ إيجار البيت السنوي. مات أبي صباح الجمعة. لو أمهلته المنية يومًا آخر لمضى إلى البنك -الذي كان يفتح أبوابه يوم السبت قبل أن تتغير العطلة الأسبوعية- وسحب النقود كلها ليسلمها إلى مالك البيت فيعود

حسابه البنكي صفرًا كما ينبغي أن تكون أرصدة الموتى. مات في يوم الجمعة، وُلِدَ أيضًا في يوم الجمعة، وتزوَّج، وأطلق النار، وخرج من السجن. كل أحداث حياته الكبرى تقريبًا وقعت في يوم الجمعة.

ولما قصدنا المحكمة لاستخراج وثيقة حصر الورثة كنا نعلم علم اليقين أن أبي لا يملك شيئًا، إنما ذهبنا لإتمام الإجراءات الحكومية اللازمة لعائلة المتوفَّى. ما كان أبي يملك غير الصيت الرفيع والسرطان والتوق الدائم إلى الضيف. كان يذكّرنا على الدوام كلما داخله الشك أننا سئمنا من استقبال الضيوف وحمل القهوة والشاي والبخور والغداء والعشاء بأنهم ضيوفٌ عند الله لا عندنا. كم ألحَّ على ضيوفه أن يمددوا إقامتهم يومًا آخر، وكم تمنينا ألا يستجيبوا له. ما أسهل تقديم واجب الضيافة في اليوم الأول، لكنه يثقل في اليوم الثاني ثم يتضاعف ذلك الثقل يومًا بعد يوم. عندما مات أبي تدافع الناس في جنازته، وامتألت مقبرة الدمام، حتى رأيت كل الضيوف الذين مروا ببيتنا.

لم تتنازع على ما بقي من أبي. أخذت أختي الكبيرة نظارته الذهبية. لعلها استعادت بالنظارة وجه أبي من الدود ليقرأ الجريدة كل صباح في غضبٍ عربيٍّ، ويترك حل الكلمات المتقاطعة في النهاية. أخذت أختي أيضًا ساعة يده. لا بد أن جلدها الأسود قد تشقق. هل بدّلته؟ هل تداوم على تغيير بطارية الساعة؟ أما تزال تسمح نظارته الذهبية كما كانت تفعل في حياته؟ أخذ أخي الأصغر السيف و"المجند" وكل ما كان يجمله أبي إلى العرضة؛ رقصتنا الشعبية الأولى، وبقيت ألبومات العائلة على الأرض. راح كلُّ منا ينظر إلى الآخر في ريبة وحذر ثم اندفعت أيدينا الثلاث وامتدّت في الوقت نفسه نحو ألبومات الصور، لكن يد أمي سبقتنا ورفعته بعيدًا.

أخذت أمي شيئًا آخر أيضًا. عدت بعد سنوات من رحلة عمل وقد ضاعت حقيبتني في المطار. أردت منشفة لأغتسل فأرشدتني إلى درج المناشف حيث وجدت منشفة أبي البيضاء. شممتها فوجدت رائحته حتى تراءى لي وقد لفّها على جذعه السفلي وراح يطلب صابونًا للحلاقة. كان نصيب أمي من تركة أبي رائحته، والرؤى التي تجلبها.

تخلّص أبي من مسدساته الثلاثة. فتشت عنها فلم أجدها في الخزانة الرمادية ولا في الرف العلوي لملايسه حيث اعتاد أن يخفيها. لا أثر لها في أي مكان. ما عادت المسدسات توجد إلا في ذاكرتي. هل بيعت في أزمنة الضيق كما بيعت ساعة الرولكس الذهبية؟ ما أغبن المحتاج وقد اضطر إلى بيع ممتلكاته بثمان زهيد. لا، لم يُرد أبي أن نرثها. تخلّص منها حتى لا يأتي هذا اليوم فيحملها أبناؤه أو حتى ينظروا إليها. لم يكن على سبيل المصادفة قطُّ أنه لم يعلّمنا الرماية بالمسدس. كان قد تعلّمها في الثامنة من عمره. دخل المزرعة فوجد أباه يتمرن على الرماية. التفت إليه جدّي رشيد وقال: "تعال يا فيّاض أطلق الرصاص". أصاب أبي الهدف من أول طلقة فهناه جدّي وراح يدعو بعدها بـ"البواردي".

لقد صمّم أبي على أن يجنّبنا هذا المصير، أو على الأقل ألا يقودنا إليه. لا بد أنه رأى التاريخ يعيد نفسه

حين شاهدته في الثامنة من عمري ينظف مسدساته الثلاثة. أتذكّر الآن أنه أهداني في ذلك اليوم أول كتاب.

- أئن نعود إلى البيت يا أمي؟

- سنعود بالطبع.

- متى؟

- عندما يعود أبوكم من السفر.

- لقد تأخر!

- سيأتي قريبًا.

- لكن متى؟

- عندما ينجز أعماله.

لم يتردد ذلك الحوار في الشهور الأولى، فقد كنت في الرابعة من عمري حين دخل أبي إلى السجن، وكان أخي الصغير قد وُلِدَ تَوًّا، أما أختي التي راحت تتصرف مثل الأخوات الكبيرات فلم تبلغ حينذاك السابعة بعدد. كنا نقضي الإجازة في بيت جدِّي لأمي بالرياض. عادةً ما تدوم إجازة الصيف نحو شهرين أو ثلاثة، لكنها في حالتنا دامت أكثر من سنتين. كان البيت يمتلئ بأفراد العائلة؛ جدَّاي وخالاتي الخمس وأخوالي الثلاثة وأبنائهم الأربعة. عجبت لبيوتنا القديمة كيف وسعت بطاقتها الأرضي الوحيد تلك الأسر بأجيالها الثلاثة.

لست أذكر بالضبط متى انتبهنا -أنا وأختي- إلى غياب أبي الطويل. لو كان هناك توقيت مثالي ليدخل السجن -ولا يوجد بالطبع- لكان هذا الوقت. كنا صغارًا فلم ندرك بالضبط ما يحدث. قالت أمي إن أبي قد سافر إلى بلد بعيد -وهل أبعد سفرًا من السجن إلا الموت؟- لينجز بعض الأعمال، وسيعود عمًّا قريب.

كلما تخاصمنا مع أبناء أخوالي راحت أختي تشتكي لأمي وتُبدي رغبتها في العودة إلى بيتنا. تبكي فأرافقها في البكاء وأقول مثلها إنني أريد العودة إلى البيت، فنوِّظ أخانا الرضيع ليكي معنا هو أيضًا مع أنه لم يعرف بيتًا غير حضن أمي. يقول الرضع أول ما يقولون "بابا" لسهولة نطق الألف والباء لا لشيء آخر. عندما يقولها أخي لن يردَّ عليه بابا، فقد عاش أخي سنتيه الأوليين عيشة الأيتام، حتى إنه أنكر أبي في أول لقاء وفرَّ منه إلى أمي.

على أنني أتذكر ليلة بعينها بكيت فيها أنا وأختي طويلًا قبل النوم حتى أبكىنا أمي. سرعان ما مسحت دموعها، وكما غلت الأم الفقيرة الماء في القدر لتُنوِّم أطفالها الجياع قالت أمي إن أبي سيعود غدًا. توسدنا وعدنا ونمنا. وعندما طلع الصباح سألناها فقالت إنه جاء في الليل واضطر إلى أن يسافر مرَّة أخرى. قالت إنه قبَّلنا ونحن نيام وجاء لنا ببعض الألعاب. العجيب أننا صدقنا ذلك. كانت الألعاب حقيقية أما القبلات فلا. لقد فعلت الذاكرة فعلتها، وعشتُ سنوات أتذكر تلك القبلة الخيالية. سألتُ أختي ذات يوم عن تلك الزيارة الليلية القصيرة فضحكت وأقسمت أنها أيضًا تتذكرها، بل تتذكر أبي عندما

فتحت عينيها فرأته ينحني ليقبّلها.

صارت أمي تهربّ أبي بالحكايات من السجن. كلما حان موعد نومنا عاد أبي إلى البيت حتى نغمض أعيننا وننام.

حملتنا أمي في يوم العيد إلى الاستوديو لنتلق صورة جماعية. كان أخي الأصغر قد كبر قليلاً وصار يقف على قدميه. لم يره أبي بعد. لا يعرف ملامحه وأوصافه إلا من حديث أمي ورسائلها ليجمع الوصف فوق الوصف ويرسم طفله في مخيلته. مرّت سنة على دخوله السجن. ربما طلب من أمي أن ترسل صورتنا، أو بادرت هي لتفاجئه في أحد الأعياد برؤية أبنائه الثلاثة. وهكذا زرنا أبي داخل السجن في صورة ملوّنة من كوداك. ألصق على جدار ذلك الاستوديو ملصق لحديقة عامة، وكانت أمام ذلك الجدار الأخضر أشجار برتقال بلاستيكية وُضعت لتوحي الصورة بأننا نتنزه في الحديقة، مع أن أقدامنا كانت تقف في الصورة على موكيت أسود! لكنه خيال الاستوديوهات.

أقف على يمين الصورة، وفي الوسط أختي الكبيرة، وعلى اليسار أخي الصغير. أقف أنا وأختي على خطّ واحد، أما أخي فيتقدم قليلاً كأنه يهيم بمغادرة الحديقة أو الاستوديو بالأحرى. في هذا العمر الصغير يصعب على الطفل أن يقف في المكان نفسه أكثر من اثنتين. لا بد أنه خاتل المصور كثيراً حتى اضطر إلى النقاط تلك الصورة أكثر من مرّة. هُملنا -أنا وأخي- قبلها إلى الحلاق ليقصّ شعورنا. سيعلم أبي حالما ينظر إلى الصورة أن أمي قد حممتنا وعطرتنا قبيل الذهاب إلى الاستوديو لفرط ما نبدو عليه من النظافة والأناقة. أعيننا مفتوحة إلى أقصى حدّ، ربما بسبب فلاش الكاميرا المبالغت. ذراعاي تتدليان وتلتصقان بجسدي في استسلام المربوط بحبل. أخي الصغير يبدو عليه الضجر، بل يوشك على البكاء. أتصنّع أنا وأختي ابتسامة غير حقيقية مثل أشجار البرتقال البلاستيكية. ربما ضحك أبي حال رؤيتها، لكن سرعان ما سيدرك ما في الصورة من خداع. لقد التقيت هذه الصورة لتوحي له بأننا سعداء ولا شيء ينقصنا.

لو عرّضت هذه الصورة على خمسة أشخاص لخمّن واحد منهم على الأقل أن هؤلاء الثلاثة أبناء رجل بعيد أو مسجون أو ميّت!

ربما حفظ أبي الصورة بين صفحات الدفتر الأزرق. ظل يُخرجها كل مساء ويتأملها حتى تُطفأ ليلاً أنوار الزنانة. الحكم بالسجن هو حكم أيضاً بالتحديق الطويل في وجوه من نُحب سواء بالعين المجردة أو بالخيال الصرف.

مرّت حادثة أبي بحياتنا مرور رصاصة في الكتف. لو انخفضت قليلاً لأصابتنا في القلب. نجونا جميعاً من الحادثة وإن تركت أثراً بالطبع. عدنا أخيراً إلى بيتنا القديم. لا أنسى أبداً أول ما دخلنا منظر الأغطية البيضاء في كل الغرف. ما إن رفعناها حتى لم نعد نلمس نحن الصغار فرقاً بين حياتنا قبل الحادثة وبعدها. ما شعرنا وقتها بألم السقوط من طبقتين اجتماعيتين دفعة واحدة، إذ لم نعرف أبي غنياً ولا فقيراً. لقد كانت الطبقة الاجتماعية المعروفة في تلك الأيام هي الطبقة المستورة.

ما جلسنا يوماً إلى وجبة ناقصة قط. لا بد من البيض والحليب والأجبان واللحوم والخضراوات التي أرغمنا كل يوم على أكلها بالقوة. كانت سلّة الفواكه لا تخلو من البرتقال والتفاح والموز، إما أن نأكلها وإما أن نشرب عصيرها ونحن نستلقي في الصالة قبالة التلفزيون فنمد أقدامنا لتلامس أطرافه. تدعونا أمي من بعيد لندرج إلى الورااء حفاظاً على أعيننا: "سيخطف هذا الشيطان أبصاركم". لو أطعناها لما احتجنا اليوم إلى هذه النظارات الطبية. سرعان ما نلتصق بالتلفزيون مرّة أخرى فتنهنا بعد دقائق لندرج قليلاً. كنا نقضي الظهرية كلها في مدّ وجزّ تلفزيوني حتى تأتي أمي لتفصل السلك من الجدار وتُنهي البث. كان هذا بالطبع قبل زمن التحكم في الأشياء عن بُعد. نمتعض دقيقة ثم نتسابق إلى درّاجاتنا الهوائية الواقفة في فناء البيت مثل أحصنة معدنية. تذهب أختي لمساعدة أمي في الأعمال المنزلية أو للحديث معها في ترفع شديد على ذينك الولدين اللذين لن يكبرا أبداً. أما نحن فنواصل اللعب، ونتعلّق بالنوافذ والأبواب، ونركب الأدراج وخزانة الملابس حتى يسقط أحدنا ويجرح ركبته، أو يرتفع أذان المغرب فتتوقف ليخرج الجن ويبدأ نوبته الليلية. ما كانت أمي لتسمح لنا باللعب أبداً في تلك الساعة. يعود أبي إلى البيت فتتحلّق حوله ليحدثنا قليلاً أو يقص علينا - إذا كان في مزاج طيب - تلك القصص التي سمعناها ألف مرّة. لم يفشل قط في جذب انتباهنا أو إضحاكنا ذلك الضحك الذي يؤلم البطن ويقطع النّفس. كم دعت أمي ليتوقف إشفافاً علينا. كان أبي يضيف دوماً إلى قصصه ما يجعلها جديدة ومختلفة قليلاً عن نسخها السابقة. إذا صارت التاسعة نمنا على الأرض بصدور راضية. أحاطنا والدانا بالأمان والحنان فلم ننم على قلق، ولم نستيقظ على فزع، وهذا كل ما يحتاج إليه الأطفال. إذا كنا لم نشعر بالسقوط من طبقتين اجتماعيتين فلأننا سقطنا في حضن والدينا.

لكن تلك السقطة الاقتصادية تسببت بكسور خالدة لأبي وأمي. مضت السنوات بحلّوها ومُرّها حتى انقطعت الكهرباء ذات يوم عن البيت. لم يكن أبي يمتلك ثمن الفاتورة. استدان وسدّدها بعد ساعات فأضيئت الأنوار وهدرت المكيفات من جديد. حسبناه انقطاعاً عابراً لولا أنه بات يتكرر كل شهرين أو ثلاثة. صرنا نعرف مالك البيت الذي يطرق الباب أكثر من مرّة. قال أبي: "إذا سألت عني قولوا إنني مسافر". ما عاد أبي يتناول الغداء والعشاء معنا. صار يلزم المجلس الذي خلا من الضيوف وخيم عليه الصمت والظلام حتى بات مثل غرفة لأخ ميت. أتذكّر مالك البيت وقد سئم من مماطلة أبي فأقسم ألا

يغادر عتبة البيت حتى يستلم نقوده. قعد على الدرج الخارجي. فتح الجريدة وراح يقرأ ويدخن. كنت كبيراً بما يكفي لأفهم ما يجري، وهكذا مضيت إلى خرطوم الماء ورحت أغسل الفناء. سرعان ما اندفع الماء من تحت الباب إلى الدرج الخارجي حيث يجلس مالك البيت الذي أخذ يشتم ويلعن عندما تبللت مؤخرته. خرج أبي إليه فلم يطرق الباب بعدها قط. دُعيت إلى المجلس فنهاني أبي عن فعل ذلك. كانت نبرته ألين من المعتاد. قال إنه سيدفع لصاحب البيت غداً، وحشني على التفوق في الدراسة والالتحاق بوظيفة آمنة حتى لا تمر عليّ مثل هذه الأيام.

كان أبي وقتذاك يتنقل بين المشروعات التجارية الصغيرة. يحاول هنا وهناك. يقف ويسقط. ينجح ويفشل. في الوقت الذي عادت فيه أمي إلى مقاعد الدراسة فأكملت دراسة السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية والتحقت بالجامعة. كانت تُدرّسنا في تلك الأثناء وتدرس معنا. ما إن تخرجت من الجامعة حتى عملت مُعلّمة في مدرسة الحي. لشدّ ما تمت أختي أن تُعلّمها أمي في المدرسة كأن دروسها الخصوصية في البيت لم تكن كافية. كانت وظيفة أمي قد ساعدت أبي وحملت عنه كثيراً من الأعباء حتى صار بمقدوره استئجار بيت أكبر وأحدث. صار لكلّ منا سرير، بل غرفة كاملة. كنا نقع من الأسرة في الأيام الأولى فنصحو بتنوءات في الرأس، نتحسسها في الصباح ونضحك. اشترى أبي سيارة كاديلاك جديدة. توافد علينا الضيوف من جديد، وعادت الولايم الكبيرة هذه المرّة في شيء من البذخ. صرنا نساfer في الصيف إلى لبنان. بدا أن النّحس قد غادر أبي في تلك السنوات، وراح يربح أموالاً طائلة، حتى ما عاد بحاجة إلى راتب أمي. لكنها وقد لدغت من قبل ما كانت لتترك وظيفتها لو لم تُقعدّها الجلطة. كانت أمي على صواب لأن أبي سيخسر أكثر أمواله في سوق الأسهم، ونعود من جديد لأزمة الكفاف.

سألته عن تلك السنوات العصبية، فكان جوابها الأبدي نفسه: "لا أتذكّر". لم تبذل أمي ما بوسعها فحسب، بل بذلت ما فوق ووسعها أيضاً، ومع ذلك لا تتذكّر. أصرت على أن تُخرج حادثة الرصاص من حياتنا. واضبت على رمي آثارها من البيت كل يوم. عندما أفكّر الآن في تلك الحادثة لا أصدّق أنها وقعت حقاً، إذ تبدو كأنها قصة عائلة أخرى. لولا أمي ما كانت نسختنا العائلية من لوحة "الناجي" لتخلو من بقعة الدم.

عبدالله ناصر كاتب من الرياض. صدرت له مجموعتان قصصيتان: "فن التخلي" (٢٠١٦)، وقد تُرجمت لاحقاً إلى الفرنسية، و"العالق في يوم أحد" (٢٠١٩)، وقد حازت جائزة معرض الرياض الدولي للكتاب عام ٢٠٢٠.

عُرف عبدالله ناصر بأسلوبه السردي الخاص الذي تجلّى في قصصه التي تعتمد على التكثيف والترميز والتناص في معالجة موضوعات ذاتية أو مفاهيمية، وتستمد طاقتها التخيلية من الذاكرة والأحلام. إلى جانب كتابته القصصية، ينشر مقالات أدبية في عدد من الدوريات العربية، ويُترجم أحياناً قصصاً قصيرة في مدونته:

<https://benelios.blogspot.com/?m=1>

"هذه ليست رصاصة" هي عمله الروائي الأول.